الباب السادس

فى ذكر ما عمرته ملوك الجراكسة

وإنّما ذكرتهم لأن بعضهم أو أكثرهم عمّر فى المسجد الحرام، وسبق لهم فيه من الترميم والنظام، لمّا صاروا من سلاطين الإسلام.

اعلم أن الجراكسة جنس من الترك فى جنوب الأرض، لهم مدائن عامرة، ولهم جبال ومزارع يرعون الغنم ويزرعون، وهم تابعون لسلطان قاعدة ملك خوارزم، وملوك هذه الطوائف لملك سراى كالرعية يقاتلونهم ويسبون منهم النساء والأولاد ويجلبونهم إلى الأطراف فى البُلدان والأقاليم، هكذا ذكر المقريزى رحمه الله فى عقوده، قال: واستكثر الملك المنصور قلاوون صاحب مصر من ملوك الأتراك بعد الأَيُوبيّة ملوك الأكراد أصحاب مصر من شراء المماليك الجراكسة، وكذلك ولده وبنوه وأدخلوهم فى الخدم الخاصّة فصاروا سلحدارية وجامدارية وجاشنكيرية وأمراء.

وكبّروا عمائمهم وسلكوا طريق أسيادهم من ملوك الترك وداخلوا السلطنة وغلبوا عليها، واستقلّوا بها واستكثروا من جنسهم وعملوا لها قوانين وقواعد انتظم بها دولتهم، وولى منهم ومن أولادهم السلطنة بمصر اثنان وعشرون ملكًا، وكانت مدّة ملكهم مائة وثمانيًا وعشرين وسنة.

فأوّلهم السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق بن آنص العثمانى الجركسى، كذا ذكره المقريزى فى عقوده وخططه.

قال الجمال يوسف بن تغرى بردى: هو جركسىّ الأصل، قام بدولة الجراكسة، جَلَبَهُ عثمان بن مسافر، ولذلك يقال له برقوق العثمانى، فاشتراه الأتابك يَلْبُغَا العمرى وهو من جملة الأتراك الذين مَسَّهم الرِّقُّ من مماليك بنى أيّوب المتغلّبين عليهم بمصر، ومات يلبغا وهو من صغار مماليكه.

وإنّما سُمّى برقوقًا لجحوظ فى عينَيْه، وتنقّلت به الأحوال إلى أن صار أمير مائة مقدم ألف، فكان أتابكا للملك الصالح حاجى بن الأشرف شعبان بن الأَمْجَد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون، وهو الرابع والعشرون من ملوك الأتراك من مماليك الأيوبية الأكراد المتغلبين عليهم غير الجراكسة[١].

وكان سنّ الملك الصالح حاجى لمّا ولى السلطنة عشرة أعوام ليس له من السلطنة غير الاسم، فألْزَم الأمراء الأتابك برقوق أن يخلع الملك الصالح ويتولّى السلطنة بدله، فخلعه بعد سنة ونصف سنة، وذلك فى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة، ومن آثاره مدرسة أنشأها بمصر بين القصرين، كان مشدّ عمارتها جاركس الخليلى[٢]، فقيل فى ذلك:

قد أنشأ الظاهر السلطان مدرسةً فاقت على إرم مع سُرعة العملِ
يكفى الخليلىّ أن جاءت لخدمته شُمُّ الجبال لها تمشى على عجل[٣]

وجهّز إلى الحرم المكّىّ مالاً لعمارة ما تهدّم من المسجد الحرام، وسار الركب الرجبى من مصر إلى مكة بعد طول انقطاعه، واستكثر من المماليك الجراكسة فاستمرّوا متغلّبين على ملك مصر إلى أن كثر ظلمهم وزاد عَسْفُهم وغَشْمهم، فأزالهم الله تعالى بعد ذلك بالسيوف الصارمة العثمانية، وتشرّفت بدولتهم القاهرة مصر والتُّخُوت اليوسفية الكنعانية ملكهم الله تعالى كافّة البسيطة وجعل معدلتهم ورحمتهم عامّة بسائر أهل الأرض محيطة.

وكان الظاهر برقوق متمكّنًا من المملكة، جمع الأموال والخزائن، وأكثر من شراء المماليك الجراكسة فتمكّنوا من الملك وتلاعبت بعده المماليك الجراكسة بملك مصر وصاروا ملوكها وسلاطينها بالقوة والغلبة والاستيلاء، وكانت تقع فتنٌ وقتال، وجلاد وجدال، وقتل نفوس، وخرب بَسوس،

(١) المنهل الصافى ٣/ ٢٨٥، وانظر لذلك أيضًا: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص٧.
(٢) المنهل الصافى ٣/ ٢٨٨.
(٣) المنهل الصافى ٣/ ٢٩٠.

وخوف وبؤس، إلى أن استقر الأمر على سلطنة واحد منهم فيركب فى شعار السلطنة، واصطلحوا على هيئة خاصّة أخذوها من الملوك الأيوبية الأكراد، وزادوا فيها ونقصوا وكان ذلك الوضع مقبولاً عندهم، فإن العُرف يحسن ويقبّح وإن كان صورة مضحكة عند من لا يألفها، ولكلّ إقليم وضع خاصٌ، وسلطان ذلك الإقليم يكون مهيبًا مهولاً فى أعين أهل ذلك الإقليم لألْفهم بتلك الهيئة لسلاطينهم، وكان من شعار سلاطين الجراكسة عمامة كبيرة ملفوفة بصنائع مكلفة، يجعلون فى مقدّمها ويمينها ويسارها شكل ستّة قرون بارزة من نفس العمامة ملفوفة من نفس الشاش، يلبسها السلطان فى مواكبه وديوانه، ويلبس قفطانًا من فاخر الثياب يكون على كتفه اليمين قطعة طرار مُزَرْكش بالذهب وكذلك على كتفه اليسار، إلا أن ذلك ليس مخصوصًا بالسلطان بل يلبس ذلك من أراد من الأمراء ومن دونهم، ويخلع بهذا الثوب المطرّز على من أراد، ويحمل على رأس السلطان قبة لطيفة صغيرة كالجتر(١)، وفى وسط ذلك صورة طير صغير يظلّل السلطان بتلك القبّة، والذى يحملها على رأس السلطان هو أمير كبير وظيفته أن يصير سلطانًا بعد ذلك.

وأكابر أمرائه، أربعة وعشرون أميرًا بطبْلَخانات تُضرَب على بابهم صُبْحًا وعصرًا، كلّ واحد منهم أمير مائة مقدم ألف بمنزلة البكلربكية(٢) عندهم، يلبس كلّ واحد منهم عمامة بأربعة قرون، ودونهم أمير عشرة مقدم مائة بمنزلة السنجق، يلبس كلّ واحد منهم عمامة بقرنَيْن، ودنهم الخاصكية يكون له فرس وخادم وعلى رأسه زنط عليه عمامة بعَذَبَة يديرها من تحت حَنَكه، ودونهم الجُلبان وهم مشاة على رءوسهم طواقى من جوخ أحمر ضيّق من موضع يدخل فى رأسه وسيع من أعلاه لا يلطأ برأسه.

وملبوس أكثرهم الملّوطة البيضاء المصقولة، يكون على كتفه طرار من

---

(١) الجتر: مظلة أو قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب؛ وتحمل على رأس السلطان فى مركب الصيد (صبح الأعشى ٤/ ٧).

(٢) البكلربكى: لفظ تركى بمعنى الأمير.

مخمَل أو أطلس أو مزركش، وفى أوساطهم شدود بيض مصقولة يشدّون بها أوساطهم ويسدلون طرفها إلى أنصاف سوقهم.

وكانت التجار تجلب المماليك البيض من بلاد جركس ويتغالون فى أثمانهم إلى أن كثروا بمصر، وبلغوا من عشرين ألف فارس إلى ثلاثين ألف.

وكانت لهم اصطلاحات فى تربيتهم، وكانت لهم أطباق يوظفون فيها المعلّمين من حفظة القرآن، وكان الجَلَب يُدْخله سيّده أولاً إلى الطبقة فيتعلّم الخطّ والاستخراج والصلاة والقراءة بحسب قابليته، فقد يفوق فى الخط ومعرفة القرآن والفقه وأمور دينه، ثم يترقّى إلى معرفة الثقاف والصراع ورمى السهام، ثم يترقّى إلى الفروسية إلى أن يتفرّس فى كلّ ذلك، ثم يترقّى إلى الخاصكية، ثم إلى الإمرة، ثم إلى الدوادارية والمقدمية، ثم إلى السلطنة.

فكان خيال السلطنة فى دماغ كلّ واحد منهم من حين يُجْلَب إلى السوق ليُبَاع إلى أن يموت، حتى أنّ واحدًا من الجلبان جُلِبَ وهو حقير فاحش القَرَعة فاحش العَرَج، قال للدلال الذى يبيعه: هلَ ولى الأَقْرَع الأَعْرَج سلطانًا فى مصر.

وبالجملة فقد كانوا طوئف سواذج، لهم سماحة وحماسة وصداقة لمن صادقوه، وكانت أرزاق مصر بيدهم، وكانت أهل مصر تتلاعب بهم فيما بيدهم من الأرزاق وكانوا بيد فقهائهم ومباشريهم، وكانوا ينخدعون فيرتب لهم مباشروهم المصريون مَصَارف فيكون للجندى فقيه يعلّمه القرآن وإمام يصلّى به ومكبّر ومباشر يكتُبُ دَخْلَه وخَرْجه وخزندار وركابدار وجامدار ومهتار وسرّاج وسايس وحلاق وغير ذلك.

فإذا ترقّى الأميرُ للإمرة ترقّى معه خدامه ويرتبون له سماطات وحَلاوى وتفكهات وكانوا فى رفاهية، وكان أهل مصر يعيشون فى ظلّهم رغدًا بحيث إن أسمطتهم كانت تكفى سائر جيرانهم، وكانت خدامهم تبيع ما يفضل من طعامهم للناس من الدجاج والوزّ وسائر النفائس، وكان لهم سوق يباع فيه ما يفضل من أطعمتهم التى أخذتها خدامهم من أسمطتهم.

وكانوا يتفاخرون ببناء البيوت الفاخرة والمدارس والجوامع والتُّرَب، وكانت لهم خيرات جارية ومبرّات عالية، إلى أن فشا فيهم الظلم والعُدوان، وكثرت منهم المصادرات وغلبت سيئَاتهم على حسناتهم وزادت مظالمهم على خيراتهم ومالوا إلى العوانية والمفسدين، وأَخَلُّوا بشعائر الشرع والدين، فاستجاب الله تعالى فيهم دعاء المظلومين، ومزّقهم كل ممزق، ودارُ الظالمِ خرابٌ ولو بعد حين، والمُلك يدوم بالكُفر ولا يدوم بالظلم، والله لا يحبُّ الظالمين، وإن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

وكانت مدّة سلطنتهم بمصر من سنة أربع وثمانين وسبعمائة إلى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، وهذا كلام وقع فى التبيين.

فلنرجع إلى أحوال الملك الظاهر برقوق، فنقول: إنه بعد سلطنته استمرّ على حاله سلطانًا إلى أن اختلفت عليه الأمراء ووقعت حروب كثيرة إلى أن خُلع وحُبس فى الكرك، ثم تسحّب من الحبس وجمع الجيوش وقاتل وغلب على المملكة وأُعيد إلى السلطنة، وصار يتتبّع أعداءه ومن خرج عليه وخالفه، ويقدّم من وافقه وحالفه، إلى أن استصفاهم وما صفا له الزمان، وظن أنه آمن وأين الأمان من يد الدهر الخوان! ومالت شمس سلطنته إلى الزوال، وانمحق بدر حياته ولا بُدَّ من المحاق بعد الكمال، وبَرَق بَرْقُ الزوال، على برقوق وشاهد الانفصال.

فعهد بالسلطنة إلى ولده الناصر فرج بن برقوق، فطلب الخليفة والقضاة والأمراء، وأشهد على نفسه أنه نزل عن السلطنة لولده فرج وسنّه عشرة أعوام، وعيّن الأتابك أيتمش البجَّاسى[1] لتدبير المملكة، وتوفى إلى رحمة الله تعالى فى ليلة الجمعة وقت التسبيح منتصف شوّال سنة إحدى وثمانمائة وفى ذلك يقولُ أحمد بن المقرئ الشاعر:

مضى الظاهر السلطان أكرم مَالِكِ إلى ربه يرقى إلى الخُلْد فى الدرجْ

---

(١) تحرف فى الأصلين إلى: «البجاشى» بالشين المعجمة، وصوابه من النجوم الزاهرة والمنهل الصافى.

وقالوا ستأتى شدّة بعد موته فأكذبهم ربى وما جا سوى فرج(١)

وخلف الظاهر برقوق من الذهب العين ألفى ألفى دينار وأربعمائة ألف دينار، ومن القماش والفرو والأثاث ما قيمته ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار، ومن الخيل المسوّمة والبغال الفارهة ستة آلاف، ومن الجمال البختية خسمة آلاف جمل، وكان عليق دوابه فى كلّ شهر أحد عشر ألف إردب شعير وفُول.

وفى أيام الناصر فرج بن برقوق وقع الحريق فى المسجد الحرام فى ليلة السبت لليلتَيْن بقيتا من شوال سنة اثنتين وثمانمائة وسبب ذلك ظهور نار من رباط رامشت الملاصق لباب الحزورة من أبواب المسجد الحرام فى الجانب الغربى منه، ورامشت هو الشيخ الإمام أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسى، وقف هذا الرباط على الرجال الصوفية أصحاب المرقعات فى سنة تسع وعشرين وخمسمائة، فترك بعض أصحاب الخلاوى سراجًا موقودًا فى خَلْوته وبرز عنها فسحبت الفارة الفُوَيْسقة فتيلة السراج منه إلى خارجه فأحرقت ما فى الخَلْوة، واشتعل اللهيب فى سقف الخلوة وخرج من شبّاكه المشرف على الحرم الشريف فاتصل بسقف المسجد الحرام لقربه منه فما كان بأسرع اشتعال سقف المسجد والتهابه، وعجز الناس عن طفئه، لعلوّه وعدم وصول اليد إليه، فعمّ الحريق الجانب الغربى من المسجد الحرام، واستمرّت النار تأكل من السقف وتسير ولا يمكن الناس إطفاؤها لعدم الوصول إليها بوجه من الوجوه، إلى أن وصل الحريق إلى الجانب الشامى واستمرّ يأكل من سقف الجانب الشمالى إلى أن انتهى إلى باب العجلة(٢).

وكان هناك أسطوانتان هدمهما السيل العظيم المهول الذى دخل المسجد الحرام فى اليوم الثامن من جمادى الأولى من ذلك العام - يعنى عام حريق المسجد الحرام - وأخرب عمودَيْن من أساطين الحرم الشريف عند باب

(١) النجوم الزاهرة ١٢/ ١٦٨.

(٢) الجامع اللطيف ص١٨٢، شفاء الغرام ١/ ٣٦٥.

العجلة بما عليها من العقود والسقوف، فكان ذلك سببًا لوقوف الحريق وعدم تجاوزه عن ذلك المكان وإلاّ لعمّ المسجد جميعه من الجوانب الأربعة، فاقتصر الحريق إلى باب العجلة وسلم الله تعالى باقى المسجد الحرام[١].

وكـم لله مـن لطـف خَفىٍّ   يَدقُّ خَفَاه عن فهم الذكىّ

فصار ما احترق من المسجد الحرام أكوامًا عظامًا تمنع من رؤية الكعبة الشريفة ومن الصلاة فى ذلك الجانب من المسجد، قال النجم بن فَهْد: وتحدث أهل المعرفة بأن هذا مُنْذر بحادث جليل يقع فى الناس وكان كذلك فقد وقعت المِحَنُ العظيمة بقدوم تمرلنك إلى بلاد الشام وبلاد الروم وسفك دماء المسلمين وسبى ذراريهم ونهب أموالهم وإحراق مساكنهم ودورهم كما هو مذكور فى التواريخ المفصّلة[٢].

قال الحافظ السَّخَاوى فى ذيله على دول الإسلام للذهبى رحمهما الله تعالى: وفى أواخر شوّال سنة اثنتين وثمانمائة، وقع بالحرم المكى حريق عظيم أتى على نحو ثُلْث المسجد الحرام، ولولا العمودان اللذان وقعا من السيل قبل ذلك لاحترق المسجد جميعه، واحترق من العُمُد الرخام مائة وثلاثون عمودًا صارت كلُّها كلسًا، ولم يتّفق فيما مضى مثله، وكان وقوع السيل فى جُمادى الأولى من هذه السنة بعد مطر عظيم الانسكاب كأفْواه القِرَب، ثم هجم السيل فامتلأ المسجد حتى بلغ القناديل ودخل الكعبة من شقّ الباب فهدم من الرواق الذى يلى باب العجلة عدّة أساطين، وخرب منازل كثيرة، ومات فى السيل جماعة رحمهم الله[٣]. انتهى.

قال التقى الفاسى[٤] رحمه الله: ثم قدّر الله تعالى عمارة ذلك فى مدّة يسيرة على يد الأمير بَيْسَق الظاهرى، وكان قدومه إلى مكة لذلك فى موسم

(١) إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام ص٩٣.
(٢) إتحاف الورى ٣/ ٤٢١.
(٣) الذيل على دول الإسلام (حوادث ٧٤٥ ـ ٨٥٠ هـ) ص٤٠٧.
(٤) شفاء الغرام ١/ ٣٦٥.

سنة ثلاث وثمانمائة وكان هو أمير الحاجّ المصرى، وتخلّف بمكة بعد الحجّ لتعمير المسجد الحرام، فلمّا خرج الحجّاج من مكة شرع فى تنظيف الحرم الشريف من تلك الأكوام التراب، وحفر الأرض، وكشف عن أساس المسجد الشريف، وعن أساس الأسطوانات فى الجانب الغربى من الحرم المحترق، وبعض الجانب الشامى منه إلى باب العجلة، فظهرت أساس الأسطوانات مثل مقاطيع الصليب، تحت كل أسطوانة، فبناها وأحكم تلك الأساسات على هيئة بيوت الشطرنج تحت الأرض، وبناها إلى أن رفعها إلى وجه الأرض على أشكال زوايا قائمة.

وقطع من جبل بالشُّبيْكة على يمين الداخل إلى مكة أحجار صوّان صلبة، منحوتة على شكل نصف دائرة، يصير مع آخر منحوت مثله دائرة تامة فى سَمْك ثلثى ذراع وُضعت على قاعدة مربّعة منحوتة على محلّ التقاطع الصليبى على وجه الأساس المرتفع على الأرض، ووضعت عليها دائرة أخرى مثل الأولى، ووضع بينهما بالطول عمود حديد منحوت له بين الحجرين المدوّرين وسبك على جميع ذلك بالرصاص إلى أن ينتهى طوله إلى طول أساطين المسجد، فيُوضع عليه حجر منحوت من المرمر هو قاعدة ذلك العمود من فوق، وينجر له خشب مربع يوضع عليه ويبنى من فوق طاقٍ يعقد إلى العمود الآخر ويُبنى ما بين ذلك بالآجر والجصّ إلى أن يصل إلى السقف، إلى أن تمّ الجانب الغربى من المسجد الحرام على هذا الحكم.

وبقيت القطعة التى من الجانب الشامى إلى باب العجلة فأكملوها بالقطع من عُمُد الرخام الأبيض مُوَصَّلة بالصفائح من الحديد إلى أن لاقوا به العمد التى بنوها بالحجر الصوّان المنحوت لعدم القدرة على العمد الرخام، فصارت الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام بعمد الرخام ثلاثة أروقة، وبالجانب الغربى وحده بالحجر الصوّان المنحوت المدوّر على شكل عمد الرخام.

وكملت عمارة هذه العمد فى أواخر شعبان سنة أربع وثمانمائة ولم يبق

غير عمل السقف، وأخر عمله لعدم وجود خشب يصلح لذلك بمكة، إذ لا يوجد غير خشب الدوم وخشب العرعر، وليس لذلك طول ولا قوة، ويحتاج إلى خشب الساج ولا يُجْلَب إلا من الهند، أو خشب الصنوبر والسَّرْو ونحو ذلك ولا يجلب إلا من الروم، فلزم تَأَخُّر إكماله إلى إحضار القدر الذى يحتاج إليه من ذلك الخشب، وشكر الناس همّة الأمير بَيْسَق على سرعة إتمام هذا المقدار من العمل فى هذه المدّة اليسيرة ومبادرته إلى تنظيف المسجد إلى أن يصلح للصلاة فيه، وكان ذا همّة عالية وحُسن توجّه، وكان كثير الصدقة والإحسان.

وحجّ الأمير بيسق فى ذلك العام وعاد إلى مصر لتجهيز ما يحتاج إليه من خشب سقف الجانب الغربى من المسجد الحرام، ووصل إلى مصر فى أوائل سنة خمس وثمانمائة وكان صاحب مكة يومئذ جدّ سادتنا أشراف مكة الآن السيّد الشريف حسن بن عجلان سقى الله تعالى عهده صوب الرحمة والرضوان، وكان ممّن يحبُّ الخير ويرغب فيه ويسعى إلى فعل الجميل ويبادر إليه، وهو الذى يقول فيه شرف الدين بن المقرى الشافعى صاحب الإرشاد والروض وعنوان الشرف وغيرهما من قصيدة له يمدحه ويعرّض بصاحب اليمن يومئذ:

أحسنتَ فى تدبير ملكك يا حسنْ وأجدت فى تسكين أخلاط الفتنْ[(١)]

إلى أن يقول:

موسى هَزَبْرٌ لا يُطـــاق نِزَالُه
فى الحرب لكن أين موسى من حسنْ
هذاك فى يمن ومـــا سَلِمَت له
يَمَنٌ وذا فى الشام لم يَدَع اليمنْ[(٢)]

(١) إتحاف الورى ٣/ ٤٤٤.
(٢) إتحاف الورى ٣/ ٤٤٦.

ومن جملة خيراته وآثاره أنه لمّا رأى رباط رامشت وما آل إليه بعد الحريق إلى أن صار سُباطة بذلك المحلّ أمر بإعادته رباطًا للفقراء كما كان وصرف من ماله عليه إلى أن عاد أحسن من الأول وزالت السباطات من ذلك المكان وانصان الحرم الشريف وتضاعفت أدعية الناس له بسبب ذلك والله يجزى المتصدقين ويسمّى الآن رباط ناظر الخاصّ لأنه رقمه وعمّره بعد تهدُّمه فى أوائل القرن العاشر وهو من طائفة المباشرين فى ديوان السلطنة بمصر فى خدمة السلطان جَقْمقَ العلائى ومن بعده، وكان من أهل الخير رحمه الله.

وفى سنة سبع وثمانمائة قدم إلى مكة الأمير بَيْسَق[1] لعمارة سقف الجانب الغربى من المسجد الحرام وغيره ممّا تشعث من سقف المسجد الشريف من كلّ جانب، فنهض إلى هذه الخدمة وأحضر الأخشاب المتناسبة لذلك ومجلبها من بلاد الروم وهيَّأها لعمل السقف ونقشها بالألوان وزوّقها، واستعان بكثير من خشب العَرْعَر الذى يؤتى به من جبال الحجاز من جهة الطائف لعدم وجود خشب الساج يومئذٍ بمكّة، وبذل همّته واجتهاده إلى أن أسقف جميع الجانب الغربى من المسجد الحرام وأكمله بخشب العرعر المذكور وعمّر معه بعض الجانب الشامى أيضًا إلى باب العجلة، فتمّ عمارة المسجد الحرام على تلك الأسطوانات المنحوتة من الحجر الصوّان، وعلّق فى تلك الأسقف سلاسل من نحاس وحديد لتعليق القناديل فى الرواق الوسطانى من الأَرْوقة الثلاثة على حكم سائر المسجد الحرام، غير أن الجانب الشرقى واليمانى وأكثر الشامى إلى باب العجلة كان فى كلّ عقد من العقود التى تلى صحن المسجد الشريف ثلاث سلاسل، أحدها فى وسط كلّ عقد، والثانى عن يمينه، والثالث عن شماله لتعليق القناديل، وأمّا هذا الجانب الغربى كانت فيه السلاسل على هذا الحكم، فلمّا احترق هذا الجانب وأُعيدت عقوده لم تركَّب فيها هذه السلاسل.

ولا أدرى هل كانت هذه السلاسل التى هى خارجة من الأروقة تحت

(١) شفاء الغرام ١/ ٣٦٦.

العقود البرّانية منها تعلّق فيها القناديل أحيانًا أم كانت لمجرّد الزينة، ولم أطلع على ذكر قناديلها ولا كيف كانت ومتى بطلت.

وأكمل عمارة سقف الجانب الغربى وما احترق من الجانب الشامى إلى باب العجلة فى سنة سبع وثمانمائة وعمّر مع ذلك فى الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام مواضع كثيرة من سقفها كان قد انكسر أعوادها ومال بعضها وكان يسيل منها الماء إلى المسجد الشريف، فأصلح الأمير بَيْسَق جميع ذلك بالطبطاب والنورة فى سطح الأسقف ودلكها وسوّاها وأتقن عملها.

وعمّر ما فى صحن المسجد من المقامات الأربع التى وضعت للمذاهب الأربعة على الهيئة القديمة، وبذل فى صرف ذلك الأموال العظيمة، وشكره الناس على ذلك وكان ذلك فى أيام الملك الناصر زين الدين أبى السعادات فرج بن برقوق بن آنص الجركسى ثانى ملوك الجراكسة، وكانت سلطنته بعهد من أبيه عند وفاته كما تقدّم صبيحة يوم الجمعة منتصف شوال سنة إحدى وثمانمائة وكان الأمير الأتابك أيتمش مدبّر مملكته، وكان الأمير يشبك خازنداره فوقع بينهما منافرة أدّت إلى مشاجرة ثم إلى مقاتلة فانكسر أيتمش فهرب إلى نائب الشام الأمير تنم الظاهرى، فجيشا جيوشًا إلى مصر لقتال الناصر ويشبك، فخرج الناصر لقتالهم فانهزموا منه واضطربت أحوال مصر لاختلاف الكلمة.

ثم وصل تمرلنك إلى بلاد الشام، وأخذها من سودون الظاهرى وأسره وقتله، ونهب بلاد الشام وأخرب ديار الدوادار، وخرج الناصر فرج بجيوشه من مصر لقتال تمرلنك فوجده قد ترك البلاد وتوجّه إلى بلاد الروم، فأعطى الشام لتغرى بردى وعاد إلى مصر وذلك فى سنة ثلاث وثمانمائة، ثم كثرت الفتن بمصر من الأمراء الظاهرية مماليك الظاهر برقوق، واختلّت الأحوال بسبب هذه الفتن والاختلافات إلى أن ضجر فرج من ذلك وهرب من القلعة بعد العشاء ليلة الاثنين سادس ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة واختفى عند سعد الدين إبراهيم بن غراب أحد رءوساء المباشرين فأخفاه عنده فلما أصبح

الأمراء وفقدوا السلطان أقاموا فى السلطنة أخاه الملك المنصور عبد العزيز بن برقوق بن آنص ثالث ملوك الجراكسة، فتلاشت أمور المملكة فى أيامه لصغر سنّه واختلاف أمراء دولته، وكيف يستقيم الملك مع الخلاف، والحال أنه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، وكانت مدّة ملك المنصور شهرين وعشرة أيام.

فظهر الملك الناصر فرج بعد هروبه واختفائه، وركب معه أمراء من مماليك أبيه وأخذ القلعة بالحراب من أخيه الملك المنصور عبد العزيز وتسلطن ثانيًا فى يوم الجمعة لأربع مضين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانمائة، ونفى أخاه الملك المنصور عبد العزيز وأخًا له اسمه إبراهيم إلى الإسكندرية فتوفيا بها فى ليلة الاثنين سابع ربيع الآخر سنة تسع وثمانمائة واتّهم الناصر بقتلهما والله أعلم بذلك وأحكم.

ثم صار الملك الناصر يتتبّع أعداءه من الأمراء فصار يقتلهم واحدًا بعد واحد، فتجمّعوا عليه وخرجوا عن طاعته وقاتلوه فهزمهم فخرجوا عنه إلى الشام فتبعهم، فصاروا يمكرون به ويهربون عنه ويتعبونه فى طلبهم مع غاية الاحتراز منه والحرب خداع، ومخالفة الجمّ الغفير والجمع الكبير لا تُستطاع، إلى أن ملّ منه الخدم والأتباع، وتفرّقوا منه وسئموا من الاتباع، وهو يتبعهم بالجدّ فى الطّلَب، إلى أن صادفوه فى طلبهم بعد التعب والدأب، وهو ومن معه أتعبوا خيولهم فى طلب العدوّ من العشاء إلى الصباح، وأشرفوا فى الصُّبح على الأمراء العُصاة عليه وهم بطول الليل فى الراحة والارتياح، فحمل السلطان الناصر فرج ومن معه وهم نفر قليلون حقيرون، على أمرائه العاصين له، وهم متوفّرون كثيرون، فمنعه أصحابه من هذه الحملة، وعلموا أنه ومن معه فى غاية التعب والقلّة، فلم يُطعهم وأطاع غروره وجهله، واغترّ بشجاعته وحَوْله، وظنّ أنه لا يقابله أحد لعزّته وطَوْله، ولا يقاتله أحد لهيبته وزَوْله، فدَلاّه خياله الفاسد بغرور، وخاب ظنه كما يخيب ظنُّ كلّ مغرور، وخانه الزمان، ودارت عليه الدوائر، وخذله الدهر فما كان للناصر، من قوّة

ولا ناصر، وانقلب إليه بصره وهو حسير، وظفر به عدوُّه الحقير، وقُيِّد وهو أسيرٌ كسير، وقُتل وما للناصر من نصير، وما جاء الفرج فَرَجًا إلا لبشرى الشهادة وإلى الله المصير.

وطعَنَتْه المَشَاعلية بالسكاكين، إلى أن انقطع منه الوَتين، وسكن منه الأَنين، فصار عبرة للناظرين، وهو مقيّد محبوس بأيدى القاتلين، فى ليلة السبت منتصف شهر صفر سنة خمس عشرة وثمانمائة وألقى بعد هذه القتلة فى سباطة مَزْبلة وهو عريان عن اللباس، يمرُّ به الناس، وينظرون إلى ذلك البَدَن الممتهن، والجسد العارى الممتحن، وذلك من أعظم العبر وأكبر المحَن، إلى أن حنّن الله عليه بعض الأنام، بعد عدّة أيام، فحمله وغسّله وأدرجه فى كفن وواراه فى التراب فى مقبرة باب الفراديس، ولعلّ الله سامحه وأسكنه الفراديس، والرجا من الله الكريم أن يكون قد غفر له، فإن السيف مَحَا الذنوب، والله علام الغيوب.

ومن العمائر الحرمية فى أيامه تجديد عقد المروة بعد سقوطه فى سنة إحدى عشرة وثمانمائة، ومنها أن تاجرًا يسمّى الخواجا حسين بن أحمد السَّرَاوى[1] أوصى فى مرض موته أن يُصْرَفَ على عمارة عين مكة من ماله عشرة آلاف درهم، وأن تعمّر الميضأة الصرغتمشية بخمسة آلاف درهم، فنفذت وصيّته بعد ذلك فى العام المذكور[2].

ووقع فى أيام الناصر فرج أيضًا أن سلطان بَنْجَالة من سلاطين أقصى الهند يومئذ السلطان غياث الدين أعظم شاه بن إسكندر شاه أرسل إلى الحرمين الشريفين صدقة كبيرة مع خادمه ياقوت الغياثى ليتصدّق بها على أهل الحرمين ويعمر له بمكة مدرسة ورباطًا ويقف على ذلك جهات يصرف ريعها على أفعال الخير كالتدريس ونحوه، وكان ذلك بإشارة وزيره خَان جَهَان[3].

---

(١) تحرف فى الأصلين إلى: «الشروانى» وصوابه من إتحاف الورى ٣/ ٤٦٦، والضوء اللامع ١٣٨/٣.

(٢) إتحاف الورى ٣/ ٤٦٦.

(٣) إتحاف الورى ٣/ ٤٥٢.

فوصل ياقوت المذكور بأوْراق سلطانية إلى مولانا السيّد حسن بن عجلان شريف مكة يومئذ جدّ أشرافنا الآن، جمل الله تعالى بوجودهم الزمان، وكان وصول ياقوت الغياثى إلى مولانا السيّد الشريف حسن بن عجلان رحمه الله مع هدايا جليلة إليه فقبلها، وأمره أن يفعل ما أمره به السلطان غياث الدين، لكنه أخذ ثُلْث الصدقة على معتاده ومعتاد آبائه ووزع الباقى على الفقهاء والفقراء، بالحرمَيْن الشريفين فعمَّتهم وتضاعَفَ الدعاء له على الخير والدال عليه، واشترى ياقوت الغياثى لعمارة المدرسة والرباط دارَيْن متلاصقتين على باب أمّ هانئ هدمهما وبناهما فى عامه رباطًا ومدرسة، واشترى أصيلتين[1] وأربع وجبات[2] ماء فى الركانى وجلها وقفًا على مدرسته وجعل لها أربعة مدرّسين من أهل المذاهب الأربعة وستّين طالبًا ووقف عليهم ما ذكرناه واشترى دارًا مقابلة للمدرسة المذكورة بخمسمائة مثقال ذهبًا ووقفها على مصالح الرباط[3].

وأخذ منه مولانا السيّد حسن بن عجلان فى الدارَيْن اللتين بناهما رباطًا ومدرسة والأصيلتين والأربع الوجبات من قرار عين الركانى اثنى عشر ألف مثقال ذهبًا، وأخذ منه مَبْلغًا لا يعلم قدره كان جهّزه معه سلطانه لتعمير عين عرفة، فذكر مولانا السيّد حسن أنه يصرفه على عمارته، ويقال: إن قدره ثلاثون ألف مثقال ذهبًا.

ثم إن مولانا السيّد حسن عيّن أحد قُوَّاده وهو الشهاب بركات المكين لتفقُّد عين بازان وإصلاحها وإصلاح البركتَيْن بالمَعْلاة وكانتا معطَّلتَيْن فأصلحهما إلى أن جرت عين بازان فيهما.

وكان خان جهان وزير السلطان غياث الدين أرسل مع ياقوت الغياثى خادمًا له يسمّى حاجى إقبال أرسله بصدقة أُخرى من عنده لأهل المدينة

---

(١) الأصيلة: بمعنى الحديقة.

(٢) الوجبة بمعنى الحصة ـ النصيب ـ فى توزيع المياه.

(٣) إتحاف الورى ٣/ ٤٨١، شفاء الغرام ١/ ٥٢٤.

المنوّرة، وجهّز معه مالاً يبنى له به مدرسة ورباطًا وهدية إلى أمير المدينة يومئذ جَمَّاز الحُسَيْنى، فانكسرت السفينة التى فيها هذه الأموال وغيرها بقرب جُدَّة، فأخذ مولانا السيّد حسن بن عجلان ربع ما خرج من البحر على عادتهم إذا انكسرت سفينة عندهم(١).

وأخذ ما يتعلّق بالسيد جَمَّاز الحسينى لأنه عصى وظهرت منه شنائع بالمدينة الشريفة، منها: أخذ مفتاح خزانة النبى ﷺ من قاضى المدينة جبراً بعد أن أهانه وهو القاضى زين الدين أبو بكر بن الحسين المراغى وضرب شيخ الخُدَّام، وأخذ من خزانة النبى ﷺ أحد عشر حوشخانه وصَنْدوقَيْن كبيرين وصندوقًا صغيراً كلّها ممهور فيها ذهب مودعٌ لملوك العراق، وخمسة آلاف كفن، وصادر الخُدَّامَ، وأراد أخذ قناديل الذهب من الحجرة الشريفة فمنعه الله تعالى ورجمَتْه العامَّةُ فهرب من المدينة الشريفة وأخذه الله تعالى، ونهب العُربان ما جمعه ومات لا رحمه الله تعالى(٢).

فأرسل مولانا السّيد حسن بن عجلان إلى المدينة الشريفة عسكراً وصلوا إليها بعد خراب البصرة، وولى عليها عجلان بن نُعَيْر(٣) الحسينى، وكلّ ذلك فى سنة إحدى عشرة وثمانمائة(٤).

وفى سنة أربع عشرة وثمانمائة، وقع فى أواسط رمضان إصلاح مواضع فى صدر سطح الكعبة الشريفة كان يكثر وكف المطر منها إلى أسفلها، منها موضع عند الطابق الذى على الدرجة التى يصعد منها إلى سطحها، ومنها موضع عند الميزاب وكان الفتح الذى فى هذا الموضع متّسعًا يَصِلُ الماء منه إلى الجدر الشامى من الكعبة لقربه منه، وينزل الماء منه فى وسط الجدر، وذلك بعد قلع اللوح الذى يستر مجرى الماء، وأُعيد اللوح كما كان

(١) إتحاف الورى ٣/ ٤٨٢.

(٢) إتحاف الورى ٣/ ٤٦٣.

(٣) تحرف فى الأصلين إلى: «نمير» بالميم بعد النون، وصوابه من إتحاف الورى ٣/ ٤٦٣، والضوء اللامع ٥/ ١٤٥.

(٤) إتحاف الورى ٣/ ٤٦٣.

وموضع[١] بقرب بعض الروازن التى للضوء[٢]، وكان إصلاح المواضع المذكورة بالجبس بعد أن قلع الرخام الذى كان هناك، وأُعيد فى موضعه، وأُبدل بعضه بغيره، وتصلّحت الروازن كلّها بالجبس، وكانت الأخشاب المطبقة بأعلى الروازن التى عليها البناء المرتفع فى سطح البيت قد تخرّبت فعوّضت بخشب سوى ذلك، وأُعيد البناء الذى كان عليها كما كان إلا الروزن الذى على باب الكعبة، فإن خشبه لم يغيّر وكان الروزن الذى يلى الركن الغربى قد تخرج بعض الخشب الذى فى جوفه ممّا يلى السقف والكسوة التى فى جوف الكعبة، وكانت الكسوة التى تليه قد زال تشبّكُها فسمِّرَتْ[٣]، وكان الروزن الذى يلى الركن اليمانى منكسراً فقُلع وعُوّض بروزن جديد وُجد فى أسفل الكعبة.

قُلْتُ: وهذه الروازن لا وجود لها الآن، فإنها سدّت جميعها، وأصلح فى الدرجة أخشاب منكسرة، وكان إصلاح ذلك عقيب مطر عظيم حصل بمكة فى أوائل شهر رمضان من هذا العام.

ولمّا قُتل الناصر فَرَج بن برقوق على الوجه الذى تقدّم شرحه ما قدم أحدٌ من أمراء الجراكسة على التلبُّس بالسلطنة خوفًا من مخاصمة العسكر وجُبْنًا أن يقدموا على قتله، فأتوا إلى الخليفة العبّاسى وأبرموا عليه وسلطنوه بالجبر، وهو المستعين بالله أبو الفضل العباس بن محمد بن أبى بكر العباسى المصرى بعد التمنُّع الشديد منه، فولى السلطنة كرهًا فى المحرم سنة خمس عشرة وثمانمائة[٤].

وكان القائم بتدبير المملكة الأمير شيخ المحمودى. ثم خلع المستعين بالله وتسلطن مكانه وتلقّب الملك المؤيد شيخ أبو النصر الظاهرى فى مستهل

(١) تحرف فى ل إلى: «ووضع»، وصوابه من م، وإتحاف الورى.

(٢) فى م: «للقبو» وفى إتحاف الورى: «بالضوء».

(٣) فى إتحاف الورى: «فشمرت».

(٤) تاريخ الخلفاء ص٥٨٥.

شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة، وهو الرابع من ملوك الجراكسة[١].

وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق اشتراه من تاجر يسمّى محمود اليزدى وأعتقه وجعله أمير عشرة[٢]، ثم صاحب طبلخانة، ثم مقدّم ألف، ثم ولى نيابة طرابلس، ثم أسره تيمورلنك لمّا أسر نُوَّاب البلاد الشامية، ثم هرب منه ووقعت له أمور مع الناصر فَرَج من الخروج عليه وعصيانه إلى أن آل أمره إلى أن صار سلطانًا.

وعَصَى عليه نُوَّاب البلاد الشامية، وتوجّه إلى قتالهم مرارًا كثيرًا، وافتتح الشام وغيرها وعاد إلى مصر، وكان يعتريه أَلَم المفاصل فصار يُحْمَل على الأكتاف ويركب المِحَفَّة، وكان شجاعًا مقدامًا مهيبًا، وكانت أسواق ذوى الفنون نافقة عنده لِجودة فهمه وذوقه، وكان يحبُّ العلماء والفضلاء ويُجِلُّ قدرهم.

وفى أيامه وقع الغلاء العظيم بمكة بحيث بيعت الغرارة الحنطة وهى حمل جمل معتدل بعشرين دينارًا ذهبًا، وكان عامًا فى جميع المأكولات بحيث بيعت البطيخة بدينار ذهب إلى أن رفع الله عن المسلمين تلك الشدة، وكان فى سنة خمس عشرة وثمانمائة[٣].

ومن عجيب ما وقع فى ذلك أن جملاً كان لجمّال يقال له الفاروثى[٤] يحمّله فوق طاقته فى جمادى الآخرة من تلك السنة فرّ من صاحبه ودخل المسجد الحرام، ولم يزل يطوف بالبيت الشريف والناس حوله يريدون إمساكه فيعضُّهم ولا يمكّن أحدًا من نفسه، فتركوه إلى أن أتمّ ثلاثة أسابيع، ثم جاء إلى الحجر الأسود فقبّله ثم توجّه إلى مقام الحنفية ووقف هناك تجاه الميزاب الشريف فنزل عنده وبكى وألقى نفسه على الأرض ومات، فحمله الناس إلى

(١) تاريخ الخلفاء ص٥٨٧.

(٢) المنهل الصافى ٦/ ٢٦٣.

(٣) إتحاف الورى ٣/ ٤٩٨.

(٤) تحرف فى ل إلى «الفاروتى»، وصوابه من م، وإتحاف الورى وإنباء الغمر.

ما بين الصفا والمروة ودفنوه هناك(١).

وفى هذه السنة عمّرت أماكن من سقف المسجد الحرام، وعقدان من جانب الركن اليمانى المتّصل بصحن المسجد(٢).

وفى سنة ست عشرة وثمانمائة عمّر شريف مكة يومئذ وهو الشريف حسن ابن عجلان بن رُمَيْثة جدُّ سيّدنا ومولانا شريف مكة الآن السيّد الشريف حسن بن أبى نُمَىّ بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان أدام الله تعالى دولته وسعادته بالجانب الشمالى من المسجد الحرام، البيمارستان الذى كان وَقْفًا للمستنصر العباسى فخَرِبَ ودُثِرَ فاستأجره من قاضى القضاة بمكة يومئذ القاضى جمال الدين بن ظهيرة الشافعى إجارة طويلة مائة عام بأربعين ألف درهم بوزن مصر، وأذن القاضى جمال الدين السيّد حسن بن عجلان أن يصرف الأجرة المذكورة فى عمارة ما تخرب من البيمارستان المذكور، وأن يهدم ما يحتاج إلى الهدم ويرمّم ما يحتاج إلى ترميمه، وأن ينتفع به مُدَّة إجارته(٣).

فشرع السيّد حسن فى عمارة البيمارستان المذكور عمارة حسنة، وجدّد فيه ما يحصل به النفع للفقراء، وجدّد به إيوانًا وصهريجًا ووقف جميع ذلك ممّا عمّره وممّا يستحقُّ الانتفاع به على الفقراء والمساكين والمرضى والمنقطعين يأوون فيه علُوًا وسُفْلاً وينتفعون بالإقامة والسُّكْنى فيه لا يزعجهم أحد ولا يخرجهم، بل يستمرّون إلى أن يحصل لهم الشفاء والعافية فيخرجون باختيارهم، فإذا خلا البيمارستان عن المرضى عاد الانتفاع لهم وكتب بذلك كتاب وقف على الصورة المشروحة، وجعل النظر على ذلك لولَدَيْه بركات وأحمد ثم من بعدهما للأرشد فالأرشد من ذريته الذكور دون الإناث من ولد الظهر لا البطن، وثبت ذلك وحكم بصحّته القاضى السيّد رضى الدين

---

(١) إتحاف الورى ٣/ ٤٩٥، وإنباء الغمر ٧/ ١١٧.

(٢) إتحاف الورى ٣/ ٥٠٠.

(٣) إتحاف الورى ٣/ ٥٠٧.

أبو حامد محمد بن عبد الرحمن الفاسى الحسنى المالكى فى يوم الجمعة لعشر مضين من صفر سنة ست عشرة وثمانمائة[١].

وإنما استحكم فيه المالكى لأن متأخّريهم أجازوا وقف المنافع، وهو خلاف رأى أبى حنيفة والشافعى، واستمرّ إلى أن خرُب ودثُر، فاستبدل مرارًا آخرُ ذلك فى أواخر دولة المرحوم المقدّس السلطان سليمان خان بن سليم خان، سقى الله عهده صَوْب الرحمة والرضوان، واستبدل إلى جانبه رباط سلطان الهند السلطان أحمد شاه الكُجَراتى، ورباط الخواجا الطاهر، واشتريت دور أُخرى وعمّر فى مكانها المدارس الأربع السليمانية لأهل المذاهب الأربعة، وبيد مؤلفه مدرسة الحنفية منها، جزى الله خيرًا من كان سببًا فى إنشائها، وسيأتى بيان عمارتها إن شاء الله تعالى.

وفى مستهل ذى الحجّة سنة ست عشرة وثمانمائة قدم إلى الحجّ أحد خواصّ مماليك السلطان الملك المؤيّد شيخ، فرأى جانب باب الكعبة الأيمن محتاجًا إلى الحلية فأخرج من ماله مقدار ما يقارب مائتى درهم فضّة خالصة فجلاه به ثم طلاه بالذهب، وفرغ من عمل ذلك قبل الصعود إلى عرفة، وشكر الناس صنيعه وعرفوا تعظيمه لبيت الله تعالى وأثنوا على همّته والخيْرُ يُذْكَرُ ولو بعد حين[٢].

وفى أواخر سنة ثمانى عشرة وثمانمائة أرسل المؤيد منبرًا حسنًا إلى المسجد الحرام ودرجة يصعد عليها إلى الكعبة، ووصل ذلك إلى مكة فى الموسم، وخطب الخطيب على المنبر الجديد خطبة التروية فى سابع ذى الحجّة وأرسل المؤيد أيضًا صدقة كثيرة لتفرّق بالمسجد الحرام، فتولّى تفرقتها الأمير تغرى بَرْمَش باشا التُّرك المقيمين بمكة[٣].

وفى سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة[٤] لسبع مضين من شهر ربيع الأول

---

(١) إتحاف الورى ٣/ ٥٠٨.

(٢) إتحاف الورى ٣/ ٥١٠.

(٣) إتحاف الورى ٣/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩.

(٤) تحرف فى ل إلى: «٧٢٢»، وصوابه من إتحاف الورى، وإعلام العلماء بيناء المسجد الحرام.

هُدمت ظُلَّة المؤذنين التى فوق زمزم لخراب خشبها وتآكُله، وبُنيت بالحجر المنحوت ووُسعت أحواض زمزم وأتقن عملها، وفرغ منه فى شهر رجب من هذه السنة[١].

وفيها عمّرت قناة عين باران لأن السيل كان قد أخربها فانقطع ماء العين، فجدّدت إلى أن جرى الماء وامتلأت البرك التى فى المعلاة ورخص الماء بعد غُلُوّه[٢].

وكانت وفاة الملك المؤيّد شيخ المحمودى فى يوم الاثنين لتسع خلون من المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وقد أناف على الخمسين، وكانت مدّة سلطنته ثمانى سنين وخمسة أشهر.

وتسلطن بعده ولده الملك المظفر أبو السعادات أحمد بن المؤيد شيخ المحمودى الظاهرى بعهد منه فى يوم الاثنين تاسع المحرم يوم وفاة والده، وعمره إذ ذاك سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام، وهو الخامس من ملوك الجراكسة، وصار مدبّر مملكته الأمير ططر أمير مجلس أتابك العساكر، وخالف عليه أمراء الشام فتجهّز عليهم ططر ومعه الملك المظفّر أحمد طفلاً وقاتلهم وقتل كثيرًا منهم إلى أن صفا له الوقت فخلع الملك المظفر وتسلطن عوضه فى يوم الجمعة لليلة بقيت من شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة، ورجع بالمظفر أحمد بن المؤيد إلى مصر، واستمرّ بالقلعة إلى أن نقل إلى الإسكندرية فتوفى بها مطعونًا سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة، وكانت مدة سلطنته سبعة أشهر وعشرين يومًا، وتنقّلت جنازته من الإسكندرية إلى مصر ودُفن بالجامع المؤيّدى داخل باب زُوَيْلة[٣].

وتسلطن الملك الظاهر أبو الفتح سيف الدين ططر الظاهرى فى يوم الجمعة لليلة بقيت من شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وهو السادس من

---

(١) إتحاف الورى ٣/ ٥٦٦، وإعلام العلماء ص٩٧

(٢) إتحاف الورى ٣/ ٥٦٦.

(٣) المنهل الصافى ١/ ٢٩٧.

ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر، وكان من مماليك الظاهر برقوق، أعتقه وقدّمه، ولا زال يترقى إلى أن صار عند المؤيّد رأس نوبة النوب، ثم أمير مجلس، ثم تسلطن كما ذكر وتلقّب بالظاهر لقب أستاذه، ومهّد مملكة الشام وقتل نائبها وقبض على الأمراء المخالفين وقدّم المحالفين(١).

وله آثار جميلة ومقاصد حسنة جليلة من أعظمها أنه قرّر لصاحب مكة الشريف حسن بن عجلان ألف دينار ذهب تحمل إليه من خزنته بمصر فى كلّ عام، وجعل ذلك له فى مقابلة ترك المكس على الخضرة والفواكه والحبوب وغيرها بمكة، وأمر أن يكتب عهده واعترافه بذلك على سوارى المسجد الحرام من ناحية باب السلام وناحية باب الصفا بإسقاط المكس الذى كان يؤخذ على الخضر والفواكه وغيرهما من المأكولات، وأن لا يكلّف شريف مكة التجار على أخذ القرض منهم، والسوارى المكتوبة بهذا العهد موجودة فى المسجد الحرام إلى الآن.

ثم لما سخّر الله للملك الظاهر ططر مملكة الشام وحلب عاد إلى مصر فمرض فى أثناء الطريق وصار يتعلّل إلى مصر وجعل فيها مواكب ولزم الفراش ولم يتهنّ بالسلطنة وما كمل فرحه بالملك، وما أمهله الدهر بل سلبه المُلك، وأسلمه إلى الهُلك، وتوفى يوم الأحد لأربع مضين من ذى الحجّة سنة أربع وعشرين وثمانمائة وكانت مدّة ملكه أربعة وتسعين يومًا(٢).

وتولّى بعده من يوم موته ولده الملك الصالح محمد بن الظاهر ططر وعمره نحو العشر سنوات، وهو السابع من ملوك الجراكسة، وصار أتباكه ومدبّر مملكته الأتابك جانبك الصوفى إلى أن تغلّب عليه الأتابك بَرْسَبَاى الدُّقْماقى فقبض عليه وأرسله إلى سجن الإسكندرية وصار أتابكًا فى مكانه، واستبدّ بأمور الملك من غير مشارك فخلع الملك الصالح وتسلطن برسباى عوضه فى يوم الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة

(١) المنهل الصافى ٦/ ٣٩٧، وما بعدها.
(٢) المنهل الصافى ٦/ ٤٠٤.

خمس وعشرين وثمانمائة، وكانت مدّة سلطنة الملك الصالح ثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا، واستمرّ بعد الخلع عند والدته فى القلعة إلى أن توفى بالطاعون فى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وعمره نحو العشرين عامًا[١].

وتولّى بَرْسَبَاى[٢] السلطنة وتلقّب بالملك الأشرف سيف الدين أبى النصر برسباى الدقماقى وهو الثامن من ملوك الجراكسة بمصر، أخذ من بلاد جركس وبيع فى بلاد قرم فاشتراه تاجر وجلبه إلى الشام وباعه فاشتراه الأمير دقماق الظاهرى نائب ملطية، وقدّمه إلى الظاهر برقوق فقرّبه وأعتقه فصار يترقى إلى أن ولاه الملك المؤيد مقدّم ألف، وجرت عليه نكبات وحبوس إلى أن ولى الظاهر طَطَر فقرّبه وأنعم عليه بتقدمة ألف، ثم جعله دوادارًا واستمرّ على ذلك إلى أن تسلطن على الوجه الذى قدمناه، واستمرّ فى السلطنة مدة طالت وحسنت أيامه.

ومن جملة مناقبه أنه أخذ بلاد قبرس وأسر ملكها فى سنة تسع وعشرين وثمانمائة وهو فى تخت مُلكه بمصر لم يتحرّك، وكان عاقلاً مدبرًا سيوسًا ذا وقار وسكينة متجملاً فى ملبسه وموكبه محبًا لجمع المال، واشترى من ماله ثلاثة آلاف مملوك جركسىّ وعمّر بالقاهرة المدرسة الأشرفية وهى من أحسن مدارس مصر، ووقف عليها أوقافًا كثيرة، وعمّر أيضًا جامعًا عظيمًا بخانقاه سرياقوس ووقف عليه أيضًا أوقافًا كثيرة[٣].

وفى أول سنى سطلنته أرسل الأمير مُقْبلاً القديدى وأمره بعمارة أماكن متعدّدة بالمسجد الحرام كان قد استولى عليها الخراب فأحسن بناءها، وجدّد كثيرًا من أسقف المسجد الحرام كان قد تأكلت أخشابها، وكذلك جدّد سطح الكعبة الشريفة، وكانت الأخشاب التى تُربط فيها كسوة الكعبة الشريفة قد تأكّلت وذابت فقلعها ووضع عوضها أخشابًا جديدة مُحْكَمَة بمسامير كبار من

---

(١) المنهل الصافى ١٠/ ٨٩.

(٢) انظر فى برسباى: المنهل الصافى ٣/ ٢٥٥.

(٣) المنهل الصافى ٣/ ٢٧٦.

الحديد وأحكم كلّ ذلك غاية الإحكام وأتقنه غاية الإتقان[١].

وفى سنة ست وعشرين وثمانمائة أمر الأشرف برسباى أميرًا له بمكة يقال له مقبل القديدى الأشرفى بقلع الرخام المفروش فى باطن الكعبة وجدرانها من داخل لتخرّبه وتقلّعه وأن يجدّده برخام جديد وأن يُعيد ما كان صحيحًا غير منكسر، وكذلك يصلح الأساطين التى فى جوف الكعبة الشريفة ويحكمها، وذكر شيخ الكعبة أنه سمع صريرًا فى سقف الكعبة الشريفة فتتبّعوا ذلك فوجدوا إحدى الأسطوانات التى تقابل البيت قد مال رأسها عن محلّها فأعادها إلى محلّها وأحكمها وعمّر ذلك عمارة حسنة، وكتب اسم سلطانه الأشرف برسباى فى لوح رخام نقره ونقشه بالذهب وركبه فى صدر البيت الشريف وهو باقٍ فيه إلى الآن، وكان مشدُّ العمارة هو الأمير مقبل القُدَيْدِىّ الأشرفى والناظر عليها الخواجا على الكيلانى تاجر السلطان، وحضر فى العمارة شيخ الكعبة والقضاة الأربعة وناظر الحرم الشريف والمعمار جمال الدين يوسف المهندس، وكان الفراغ من هذه العمارة فى شهر صفر[٢].

وفى أول هذا العام عمر الرخام الذى فى أرض الحِجْر فى باطنه وظاهره وأعلاه وأسفله على يد الأمير مقبل المذكور[٣].

وفيها عمر باب الجنائز أحد أبواب المسجد الحرام الواقع أمام رباط سيّدنا العبّاس رضى الله عنه أمام هذا الباب[٤].

وإنّما سمّى باب الجنائز لأنه كان مخصوصًا بدخول الجنائز منه إلى المسجد الحرام للصلاة عليها فيه، وجرت عادة أهل الحرمَيْن الشريفين بإدخال جنائزهم المسجد الحرام والصلاة عليها عند باب الكعبة الشريفة، وكذلك

---

(١) إتحاف الورى ٣/ ٥٩٧ ـ ٥٩٨.

(٢) إتحاف الورى ٣/ ٥٩٧ ـ ٥٩٨.

(٣) إتحاف الورى ٣/ ٥٩٨.

(٤) إتحاف الورى ٣/ ٥٩٨.

أهل المدينة يدخلون جنائزهم المسجد النبوى ويقفون بها أمام وجه النبى ﷺ ويصلّون عليها فى الروضة الشريفة، وهذا مذهب الإمام الشافعى والإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنهم.

وأمّا الحنفية فى الحرمين الشريفين فيقلّدون أولئك الأئمة ليحوزوا[١] هذا الفضل العظيم، لأن مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه عدم جواز إدخال الميّت إلى المسجد، وطالما تصفحتُ كُتُبَ الفتاوى وتفحصتُ عن رواية أئمتنا بالجواز إلى أن ظفرت بعون الله تعالى برواية عن الإمام أبى يوسف رضى الله عنه فى جواز ذلك، وهى رواية عن أبى حنيفة رضى الله عنه، ففرحت بها كثيرًا كأنى ظفرت بكنز عظيم، فلا تغفل عنها فإنّها من مهمّات المسائل لا سيما لأهل الحرمَيْن الشريفين فعضّ عليها بالنواجذ.

واعتمدْ على ما أفتيتُ به فى هذه المسألة، فقد ذكر علماؤنا رضى الله عنهم أن كلّ قول قال به الإمام أبو يوسف والإمام محمد والإمام زفر فهو رواية عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه، وحيث ثبتت هذه الرواية عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه فهو قول له وإن كان غير ظاهر الرواية فأخذنا بها تصحيحًا لعمل جيران الله وجيران نبيّه ﷺ فى الحرمين الشريفين من صدر الإسلام إلى هذا العصر، ولا نقول بتأثيم من سلف مع وجود المساغ الصحيح وهو رواية عن المجتهد الذى نقلده رضى الله عنه.

وقد رُفع إلىّ سؤال فى ذلك صورته ما قولكم فى مسألة الصلاة على الميت فى المسجد الحرام المكىّ ومسجد النبى ﷺ فى الروضة الشريفة؟ هل يجوز للحنفىّ إدخال الميت إليهما والصلاة عليه فيهما كما هو عمل أهل الحرمين قديمًا وحديثًا وهو شأنُ السلف الصالح إلى الآن أم لا يجوز ذلك لأن الصحيح من مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه كراهة الصلاة على الميت فى المسجد، وعلى هذا فهل يأثم فاعل ذلك وهل تُؤثمون السلف الصالح على إدخال موتاهم إلى مقابلة وجه النبىّ ﷺ طلبًا لبركته ومرحمته ثم

(١) فى ل: «ليجوزوا» بالجيم المعجمة.

إدخاله إلى الروضة الشريفة التى هى بنصّ الحديث الشريف روضة من رياض الجنّة فى حرم الميت من دخولها ولا يدخل إلى المسجد الحرام ولا يُوضَع على باب الكعبة منطرحًا فى باب مولاه الكريم تعالى ويُحْرَم من هذه البركات كلّها ويأثم من أدخله مواطن هذه الرحمة والخير أفتونا.

فكتبتُ ما صورته: اللهم وفقنا للصواب، اعلم رحمنا الله تعالى وإيّاك أن شرف المسجد الحرام وروضة النبىّ ﷺ ونزول الرحمة فيهما على من حلّ بهما أمر واضح لا شكّ فيه ولا مِرْيَة تعتريه، وما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وقد تواطأ أهل الحرمين الشريفين وتطابقت آراؤهم قديمًا وحديثًا من صدر الإسلام وإلى الآن على إدخال موتاهم إلى المسجد طلبًا لمزيد التبرُّك والاسترحام، ولم يعهد من علمائنا بالحرمين الشريفين التأبّى من ذلك أو الإنكار على فاعله مع أنه سائغ فى مذهب غير الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه من الأئمة المجتهدين رضى الله عنهم، فلا نقدم على تأثيم السلف الصالح فيما فعلوه طلبًا لمزيد الرحمة والرضوان والبركة، واختلاف الأئمة رضوان الله عليهم رحمةٌ، ويجوز للمقلّد الأخذُ بكلام مجتهدٍ من المجتهدين فى بعض المسائل وإن خالَفَ إمامُهُ رضى الله عنه.

ومع ذلك فقد وجدت نقلاً صريحًا فى المحيط البُرهانى عن الإمام الثانى، أن فى رواية عنه قولاً مثل قول الإمام الشافعى رضى الله عنه وصورة ما نقل: وإنّما تكره الصلاة على الجنازة فى المسجد الجامع ومسجد الحىّ عندنا، وقال الشافعى رحمه الله: لا تكره.

وعن أبى يوسف روايتان فى رواية كما قال الشافعى، وفى رواية: إذا كانت الجنازة خارج المسجد والإمام والقوم فى المسجد لا تكره، انتهى.

فترجّح عندى أن أفتى بالجواز من غير كراهة، واعتمدت على هذه الرواية وأحسنت الظنّ بالسلف الصالح وكفى بالإمام أبى يوسف رضى الله عنه قدْوَة فى هذه المسألة، فاعلمْ ذلك واحفظْه فإنه نفيس ولا تجمد مع الجامدين على أن الكراهة كراهة تنزيه نصّ عليه شرف الأئمة العقيلى كما نقله عنه الإمام

Obeikandi.com

الزاهدى رحمه الله، قاله الفقير قطب الدين الحنفى غفر الله تعالى ذنوبه.

قال النجم عمر بن فَهْد رحمه الله تعالى فى كتابه إتحاف الوَرَى بأخبار أمّ القُرَى فى حوادث سنة ست وعشرين وثمانمائة[١]: وفيها عمّر الأمير مقبل القديدى باب الجنائز على صفته الآن؛ لأنه كان قد سقط ما فوق أحد البابَيْن إلى منتهى جدر المسجد الحرام المقابل لرباط المراغى، وتخرب ما بين هذا الباب والباب الآخر، وأزيل الحاجز الذى كان بينهما وأزيلت الأسطوانتان الرخام اللتان كانتا تليان هذا الحاجز، وعُمّر بحجارة منحوتة حتى ارتفع، وعمّر أماكن بهذا الموضع بين باب علىّ وباب العبّاس وموضع آخر يتّصل بباب الأفضلية[٢]. انتهى.

قلتُ: رباط المراغى هو الآن محلٌّ مدرسة السلطان الأشرف قايتباى التى هى منزل أمير الحاجّ المصرى فى هذا الزمان، والمدرسة الأفضلية هى من أوقاف الخواجا محمد بن عباد الله وبينهما بابان للمسجد الحرام أصلُهما باب واحد، يقال له: باب النبىّ ﷺ، وكان يدخل المسجد من هذا الباب؛ لأن دار السيدة خديجة رضى الله عنها فى هذا الصَّوْب، وهى الآن مزار يزار، وهذا الباب يقال له الآن: باب الحريريّين لأن الحرير يُباع خارج هذا الباب.

قلتُ: وعادة الناس فى زماننا إدخال الجنائز من باب العباس وتخرج من باب السلام، وأنا أرى أن تدخل الجنائز وتخرج من باب الحريريّين ما بين مدرسة قايتباى ودار الخواجا ابن عباد الله، لأن النبى ﷺ كان يدخل من هذا الباب إلى المسجد ويخرج منه، ولا شكّ أنه أكثر بركة وخيراً من سائر أبواب المسجد الحرام.

وإنّما يقال له باب القَفَص لأن الصيَّاغ يضعون الحُلىّ فى أقْفاص للبيع بقرب هذا الباب.

قال النجم عمر بن فَهْد: وفيها عمّر الأمير مُقبل المذكور عدّة عقود

(١) فى ل: «قوله».

(٢) إتحاف الورى ٣/ ٥٩٨ ـ ٥٩٩.

بالمسجد الحرام فى الجانب الشامى من الدَّكَّة المنسوبة إلى القاضى أبى السعود ابن ظهيرة إلى باب العجلة خلف مقام الحنفية، وزاد فى عرض العقود التى تلى الصحن من هذا الجانب ثلاثة عقود فى الصفّ الثالث وأحكم الأساطين التى عليها هذه العقود وهى سبع أساطين فى الرواق الأول وثمان فى الذى يليه وثلاث فى الذى يليه وسبع متّصلة بجدار المسجد، وجدّد من أبواب المسجد الحرام باب العبّاس وهو ثلاثة أبواب، وباب علىّ وهو ثلاثة أبواب أيضًا، والباب الأوسط من أبواب الصَّفَا وهى خمسة، وباب العجلة وهو باب واحدٌ، وأحَدَ بابى الزيادة وهو الواقع فى الركن الغربى من الزيادة ورمّم باقى أبواب المسجد وبيّض غالبه وأصلح سقفه وكلّ ذلك على يد الأمير مقبل المذكور ومعماره المعلم جمال الدين يوسف المهندس(١) رحمه الله.

وفى هذه السنة جدّد الأشرف برسباى الكسوة الحمراء داخل الكعبة الشريفة وكساها من داخل وأزال الكسوة القديمة وكانت للناصر حسن بن قلاوون، وجاءت الكسوة الجديدة على يد الزينى عبد الباسط ناظر الجيش(٢) صاحب الباسطية التى على باب العجلة على يسار الداخل إلى المسجد الحرام، وهى مدرسة وخلاوى للفقراء فى غاية الاستحكام والإتقان، وللمدرسة شبابيك مشرفة على المسجد الحرام، وسبيل إلى جانب المدرسة باقية إلى الآن بيد الخازنين من أئمة مقام الحنفى تسكنها الأعيان الواردون إلى الحجّ، وكانت عليها أوقاف بمصر دُثِرَت الآن.

وبَنَى أيضًا عبد الباسط سبيلاً وحفر بئرًا فى طريق العُمرة على الثنية على يسار الذاهب إلى العمرة موجودة إلى الآن بقرب الموضع الذى يقال له فَخ ـ بالفاء والخاء المعجمة ـ فيه مدفن الإمام أبى عبد الله الحسين بن على بن الحسن المثلث بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان أحد الأجواد فى الإسلام، وكان يقول: ما أظنُّ أن لى أجرًا فيما أعطيه، فقيل له:

---

(١) إتحاف الورى ٣/ ٥٩٩ ـ ٦٠٠.

(٢) إتحاف الورى ٣/ ٥٩٦.

وكيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، ووالله ما هذا عندى وهذا الحَصَى إلا بمنزلة واحدة.

وكان خرج على الهادى العباسى بمكة، وقاتل خالداً اليزيدى ومن معه من جنود العبّاسيّين وهزمهم، ثم وصل محمد بن سليمان بجنود أُخرى من قبل الهادى ونزل الحسين بن على بفخّ وقاتل قتالاً شديداً إلى أن قُتل هو وجماعة من شيعة أشراف بنى حسن رحمهم الله تعالى، وحُملت رءوسهم وهى مائة رأس يقدمها رأس الحسين بن على إلى الهادى ويقال له الحسين بن على الفخّ الينبعى.

وروى أبو الفرج الأصبهانى فى مقاتل الطالبيّين بإسناده إلى النبىّ ﷺ، قال: انتهى رسول الله ﷺ إلى فخّ فصلّى بأصحابه صلاة الجنائز، ثم قال: «يُقْتَل ههنا رجل من أهل بيتى فى عصابة من المسلمين ينزل لهم بأكفان وحُنوط من الجنّة، تسبق أرواحهم إلى الجنة أجسادهم»[١]. انتهى.

وعبد الباسط[٢] هذا هو ابن خليل بن إبراهيم الدمشقى ثم القاهرى ناظر الجيش فى أيام الظاهر ططر فمن بعده، كان عزيزاً رئيساً كريماً نافذ الكلمة عالى الجاه واسع العطايا كثير الهمّة، له فى كل واحد من هذه المساجد الثلاثة مدرسة، وكذلك بالقاهرة مدرسة عظيمة، وبالشام وبغزّة، وله على جميع هذه المدارس أوقاف كثيرة بمصر كانت تغلُّ مغلاً كثيراً واستولى عليها الخراب الآن، وكانت له سحابة للفقراء تُنْصَب له فى الطريق ليستظلّوا تحتها وكانوا يحملون على جمال فى شقادف أعدّها لهم وكانوا يسقون الماء العذب كلّما احتاجوا إليه ويطعمون الخبز الطرى والبكسماط، وكان يطبخ لهم فى المناهل ويذبح لهم الغنم فى الذهاب من مصر إلى مكة وفى مدة الإقامة بها والعود منها إلى مصر مع الإحسان إليهم وإلى غيرهم، وأصلح كثيراً من درب الحجاز، وكان متكلماً على أوقاف كسوة الكعبة بمصر فعمرّها ونماها

(١) مقاتل الطالبيين ٢/ ٤٣٦.

(٢) انظر فى عبد الباسط بن خليل: المنهل الصافى ٧/ ١٣٦.

إلى أن فاضت وكثرت فى أيامه.

وقد ذكر شيخ الإسلام قاضى القضاة بمصر الشهاب أحمد بن حجر العسقلانى رحمه الله فى كتابه فتح البارى: أن الصالح بن الناصر بن قلاوون اشترى ثلثى قرية يقال لها بيسوس من وكيل بيت المال ثم وقفها فى كسوة الكعبة الشريفة، ولم تزل تُكْسَى من ريع تلك القرية إلى أن فوض أمرها المؤيد شيخ إلى الزَّينى عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش، فَنَمَتْ وكثر ريعها، وبالغ فى تحسينها بحيث يعجز الواصف عن وصف حسنها جزاه الله على ذلك خيرًا انتهى.

وكفاه فخرًا ذكر هذا الثناء والوصف الجليل فى مثل ذلك بهذا التأليف العظيم.

ورأيت فى شرح إيضاح المناسك للسيّد نور الدين على السَّمْهُودى الحسنى عالم المدينة رحمه الله ما لفظه: وكسوة الكعبة الشريفة وكسوة الحجرة الشريفة النبوية فى هذه الأَعْصُر من وقف قرية يقال لها سنديس فى طرف القَلْيُوبية ممّا يلى القاهرة، شراها السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد ابن قلاوون من وكيل بيت المال ووقفها لأن تكسى منها الكعبة الشريفة كلّ سنة وتكسى الحجرة الشريفة النبوية فى كلّ خمس سنين مَرَّةً على ما قاله الزّين المراغى فى ذلك فى عشر الستين وسبعمائة.

أقول: هذه القرية موجودة الآن بمصر، لكن ذكر لى من كتبة ديوان مصر الفاضل الكامل مولانا مُصْطَفى جلبى ابن مَسيح زاده لمّا كان مقيمًا بمكة المشرفة ناظرًا على الحرم الشريف المكّى ذكره الله تعالى بالصالحات والرحمة، أن هذه الأوقاف ضَعُفَت جدًا وقلّ محصولها وصارت لا تفى بكسوة الكعبة الشريفة، فعرض ذلك على أبواب المرحوم السلطان سليمان خان، أسكنه الله تعالى فسيح الجنان، فأمر بإلحاق قُرًى أُخرى اشتُرِيَتْ من بيت المال وأوقفها وأَلْحقها بأوقاف كسوة الكعبة الشريفة وهى باقية إلى الآن، ومنها كسوة الكعبة الشريفة فى كلّ عام.

ولنَعُد إلى تكميل ترجمة القاضى عبد الباسط، كانت وفاته رحمه الله تعالى يوم الثلاثاء لأربع ليالٍ مضين من شوال سنة أربع وخمسين وثمانمائة.

وتوفى السلطان الملك الأشرف بَرْسَبَاى يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، وفى يوم وفاته تولى الملك بعده ولده الملك العزيز أبو المحاسن جمال الدين يوسف[(١)] وعمره يومئذٍ أربعة عشر عامًا، وهو التاسع من ملوك الجراكسة بمصر.

وصار مدبّر مملكته الأتابك جقمق العلائى، ولا زال يقوى أمره والأقدار تساعده إلى أن خلع الملك العزيز يوسف بن برسباى بعد أن تسلطن نحواً من خمسة أشهر لم يكن له فيها إلا مجرد الاسم، وتسلطن مكانه فى يوم الأربعاء لعشر بقين من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة ولقبوه الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق[(٢)] العلائى الظاهرى، وجلس على سرير الملك وتمّ أمره، وهو العاشر من ملوك الجراكسة، وكان جُلِبَ من بلاد جركس إلى مصر وباعه جالبُه فاشتراه علاء الدين على بن الأتابك إينال اليوسفى فنُسب إليه فقيل له جقمق العلائى، ثم انتقل إلى الظاهر برقوق فقيل له الظاهرى، وكان عنده خاصكيًا ثم صار فى دولة الناصر ساقيًا عنده ثم صار أمير عشرة ثم صار فى دولة المؤيد خازندارا ثم صار من مقدمى الألوف ثم فى دولة الأشرف صار حاجب الحُجَّاب ثم أمير آخور كبير ثم أمير سلاح ثم صار أتابكًا إلى أن تسلطن فخرج عن طاعته الأمير قرقماس فقاتله، ثم ظفر به وسجنه بالإسكندرية ثم قتله، ثم خرج عن طاعته نائب حلب تغرى برمش، ثم إينال الحكمى نائب الشام، فجهّز عليهما العساكر فقاتلوهما واحداً بعد واحد وظفر بهما وقتلهما.

وبعد قتل هؤلاء صفا له الوقت فأخذ وأعطى وأقدم وسَطَا وصار متواضعًا محبًا للفقهاء والعلماء والصالحين يميل إلى تربية الأيتام ويحسن إليهم عفيفًا

(١) انظر فى يوسف بن برسباى: الدليل الشافى ٢/ ٧٩٩.

(٢) انظر فى جقمق العلائى: المنهل الصافى ٤/ ٢٧٥.

من المنكرات طاهر الفم والذيل لا يُعْلَم من ملوك الجراكسة قبله ولا بعده أعفُّ منه، وكان على قاعدة الأتراك الدَّعْوَى عنده لمن سبق، يذاكر بمسائل فقهيّة ويتعصّب لمذهب أبى حنيفة رضى الله عنه، وملك مصر نحوًا من خمسة عشر عامًا إلى أن أَوْرَى الدهر له من زنده نارًا، وبدّل عيشه الأخضر بالموت الأحمر ولم يجدْ له أنصارًا، واتّخذ تحت الأرض بعد تخت الملك قرارًا، واصفرت الأرض منه فى سابع صفر سنة سبع وخمسين وثمانمائة.

وكان الظاهر جقمق أول ما ولى السلطنة التفت إلى مكة المشرفة، وأرسل خلعًا ومراسيم للسيّد بركات بن حسن بن عجلان بولاية مكة، وأرسل إليه سُودُون المحمدى ليكون أميرًا على خمسين فارسًا من الترك مقيمًا بمكة، وولاه نظر الحرمَيْن الشريفين وشيّد العمائر بها، وكان من عمارة الأمير سُودُون بالمسجد الحرام سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة أنه قلع الرخام الذى فى سطح الكعبة الشريفة لأنه كان ينقط منه الماء فى وقت المطر إلى جوف الكعبة الشريفة، وكان الخشب الموضوع فى السطح الشريف الذى تُرْبَطُ فيه حبالُ الكسوة الشريفة قد تأكّل وتكأكلّ خشب الروازن الأربعة التى فى سقف الكعبة التى كانت للضوء، فغيّر ذلك جميعه، وجرّد الكعبة الشريفة من خارجها عن الكسوة ووُضعت الكسوة داخل البيت الشريف واستمرّت مجرّدة يومَيْن وليلتَيْن، فصارت مكشوفة يشاهد الناس أحجارها إلى أن كمل ترميمها وإصلاحها وأُعيدت الكسوة عليها فى ضحى يوم الاثنين لثمان بقين من شهر صفر سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة، وأصلح أيضًا رخام داخل الكعبة من الجدار المقابل للباب الشريف، وأصلح أيضًا رخام الحجر وبيّض مئذنة باب السلام، وأصلح مئذنة باب العُمرة، وبيّض مئذنة باب الحزورة، ورمّم أسافل مئذنة باب على، وأصلح سقف المسجد الحرام فى تلك الجهة لخرابه، وأصلح الرفرف الدائر بالمسجد الحرام، وبيّض عُلُوَّ مقام إبراهيم، وعلوَّ مقام الحنفية، وقبّة باب إبراهيم، والأميال التى بلصق دار العباس فى المَسْعَى، والميل الذى فى ركن المسجد بقرب باب بازان والذى يقابله التى هى علامة

للسَّعْى بينهما، وعيّن فى كلّ ميل قنديلاً يوقد بالليل من قناديل الحرم الشريف فى شهر رجب وشعبان وشهر رمضان تضىء للمعتمرين وفى بعض ذى الحجّة للإضاءَة على الحجاج إذا أرادوا السَّعْىَ وجعل على الصفا قنديلاً وعلى المروة قنديلاً(١).

ثم عمّر الأمير سُودُون المذكور ما بقى من المواضع المأثورة فى مِنًى وفى المشعَر الحرام بمُزْدَلفة ومسجد نمرة بعَرَفَة، وقطع جميع أشجار السَّلَم والشوك الذى كان بين المَأْزِمَيْن فى طريق عرفة وكانت تمزق كسوة الشقادف والمحاير عند مزاحمة جمال الحاجّ فى ذلك المحلّ، وكانت الحرامية تكمن تحت الأشجار وتنهب جميع ما تظفر به من الحجاج وتخطف منهم جميع ما تقدر عليه، فقطع الأمير سودون جميع تلك الأشجار وأزال الصخور الكبار ونظف الطريق ووسّعها، وشكره الحجاج على ذلك ودعوا له حيث كانت تضرُّ فى طريق المسلمين، وإلاّ فشجرُ الحرم لا يُعْضَد ولا يُقْطَع فرحم الله تعالى روحَه الشريفة وأثابه الحُسْنَى(٢).

وكذلك الأمير خُوشكلدى نائب جُدَّةَ فى عصرنا فى حدود سنة خمسين وتسعمائة قطع أشجار السلم ما بين المأزمَيْن، وكسر الأحجار الكبار ورضمها فى سفح الجبلَيْن، ومهَّد ووسّع الطريق للحاجّ ودفع بذلك عنهم شرَّ السُّرَّاق الذين كانوا يكمنون خلف تلك الأشجار والأحجار، وشكره الناس على ذلك أثابه الله تعالى، وسيأتى شىءٌ من عماراته فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وفى موسم سنة ثمان وأربعين وثمانمائة، وصل مع الركب المصرى رسول سلطان العجم شاه رُخّ ميرزا بكسوة للكعبة الشريفة وصدقة لأهل مكة فكُسيت الكعبة من داخلها بتلك الكسوة فى يوم عيد الأضحى وفُرّقت الصدقة على أهل الحرم(٣).

---

(١) إعلام العلماء ببناء المسجد الحرام ص٩٩.

(٢) إعلام العلماء ص١٠٠.

(٣) إتحاف الورى ٤/٢٣٨.

obeikandl.com

وفى سنة خمسين وثمانمائة وصل بَيْرَم خَجَا ناظرًا على المسجد الحرام، وبنى بالمَعْلاة سبيلاً وحوضًا ينتفع بهما الناس والبهائم على يمين الصاعد إلى المَعْلاَة[1]، وصار الآن فى عصرنا بستانًا عمّره خواجا قبينى مولانا محمد بن محمود أفندى قاضى مكة المشرفة فى سنة سبع وستين وتسعمائة، وقدّمه لجانم سلطان زوجة الوزير الأعظم رستم باشا وأُمّها والدة السلاطين خاصكى سلطان رحمهما الله، وهو الآن فى تصرُّف ناظر عمارتها بمكة المشرفة.

وفى موسم سنة خمسين وثمانمائة أيضًا حجّ وزيرٌ من وزراء السلطان مراد الثانى طيّب الله ثراه جاء بصدقات جليلة وخيرات وافرة جزيلة لأهل الحرمين الشريفين، ورمى فى بركة قبّة العباس بالحرم الشريف ثلاثمائة وستّين رأس سُكَّر وعدّة قناطير من العَسَل وسقى الناس وملأ القرب وخرج بها السَّقَّاءون إلى المَسْعَى يسقون الناس وصَدَّقَ على الحجاج وأهل الحرمين أموالاً جزيلة، تقبّل الله منه صالح أعماله.

وفى سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة، عمّر ناظر الحرم بَيْرَم خَجَا فى الجانب الشرقى قطعة من جدار المسجد الحرام تلى رباط السدرة الذى هو الآن رباط الأشرف قايتباى، وعمّر شباك خلوة منسوبة للشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى، وشباك خلوة منسوبة للشيخ جمال الدين محمد بن إبراهيم المرشدى، وجدّد فى الرواق القبلى من الجانب الشامى سبعة عقود، وعمّر أيضًا عين حُنَيْن وأصلح مجاريها ورمّمها ترميمًا مُحكَمًا[2].

ووصلت فى ذلك العام كسوة لِحِجْر إسماعيل مع كسوة البيت الشريف، ولم يُكسَ بها الحِجْرُ الشريف لأنه لم تجر بذلك عادة قبل هذا، ووُضعت داخل البيت الشريف، ثم كُسِىَ بها الحِجْر الشريف من داخله فى العشر الأخير من ذى الحجة سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة بعد أن حُفظت فى جوف

---

(٤) فى ل: «المعابد» والمثبت من م، وإتحاف الورى والضوء اللامع ٣/ ٢٢.

(٢) إتحاف الورى ٤/ ٢٨٠.

البيت الشريف سنة كاملة.

وعمّر ناظر الحرم الشريف بَيْرَم خَجَا عدّة برك فى عرفة كانت دائرة مملوءة بالتراب، فأخرج ترابها وأصلحها وساق إليها الماء من الآبار التى بقربها ليشرب الحجاج، وعمّر مسجد نمرة بعرفة، وعمّر مسجد الخيف بمِنًى وصرف مالاً عظيمًا فى جهات الخيرات[١].

ثم عزل ناظر الحرم المذكور بالتاجى الأمير بُرْدبَك، ووصل إلى مكة المشرفة ليلة الأحد السادس والعشرين من شعبان سنة أربع وخمسين وثمانمائة وطاف وسَعَى وعاد إلى الزاهر ودخل صبح تلك الليلة من أعلى مكة ولاقاه أكابر مكة وأعيانها، ولبس الخلعة السلطانية وقرئ مرسومه بالحطيم وهو مؤرّخ بثانى عشر جمادى الآخرة، يتضمّن أنه ولى نظر الحرم الشريف والربط والأوقاف والصدقات وأن يحاسب من كان قبله وأن يكون محتسبًا بمكة، واستمرّ بهذه الوظائف وهو قائم الجاه نافذ الكلمة وباشرها مع التمكين[٢].

وعمّر فى أواخر السنة بعض سقوف المسجد الحرام[٣].

وفى هذه السنة أجر قاضى القضاة أبو السعادات ابن ظهيرة الشافعى رحمه الله رباط رامشت لوكيل القاضى ناظر الخاص[٤]، ثم وصلت فتاوى بعَدَم صحة إجارة الوقف إجارة طويلة، فاستبدل له وحكم بصحّة الاستبدال حاكم حنفى، ثم أمر بعمارته رباطًا فعمّره له ناظر الحرم الشريف التاجى بُردبك، وفتح فيه عدّة شبابيك على الحرم الشريف على الوضع الذى هو باق عليه إلى الآن.

وفى سنة ست وخمسين وثمانمائة وصلت أحكام من الظاهر جقمق

(١) إتحاف الورى ٤/ ٢٨٦.

(٢) إتحاف الورى ٤/ ٢٩٧.

(٣) إتحاف الورى ٤/ ٢٩٨.

(٤) إتحاف الورى ٤/ ٢٩٩.

تتضمّن الأمر بإخراج ما على الكعبة الشريفة من داخلها من الكسوة المنسوبة إلى شاه رُخ ميرزا، والكسوة المنسوبة إلى الأشرف برسباى، وأن تبقى كسوة الملك الظاهر جقمق وحدها ففعلوا ذلك(١).

وفيها سافر أمير الترك الراكز بمكة الأمير جانبك النوروزى، وولى عوضه فى منصبه ناظر الحرم التاجى بُرْدبَك(٢).

وفى سنة سبع وخمسين وثمانمائة وردت القُصَّاد من مصر تخبر بأن الملك الظاهر جقمق زاد به مرضه فخلع نفسه من السلطنة فى يوم الخميس لتسع بقين من المحرم الحرام من السنة المذكورة لولده أبى السعادات فخر الدين عثمان ولقّبه الملك المنصور(٣)، وعقد له البَيعة ورضى الناس به واطمأنوا، وهو الحادى عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم، وتسلطن وسنُّهُ دون العشرين، وركب بشعار السلطنة، وحمل الأتابك إينال العلائى أمير كبير القبّة والطير على رأسه، وجلس على تخت الملك فى قلعة الجبل وباشر الأمور إلى أن توفى والده بعد سلطنة ولده المذكور باثنى عشر يومًا، فوقعت فتنة بين الأمراء فخلع الملك المنصور عثمان.

وتسلطن الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر إينال العلائى(٤) فى صبيحة يوم الاثنين لثمان مضين من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة وهو الثانى عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم، وهو جركسىٌّ جلبه الخواجا علاء الدين إلى مصر فاشتراه الظاهر برقوق، وأعتقه الناصر فَرَج بن برقوق، وتنقّل فى الدولة إلى أن صار فى أيام الأشرف برسباى أمير مائة مقدّم ألف، وولاه الظاهر جقمق الدوادارية الكبرى إلى أن جعله أتَابِكًا، واستمرّ إلى أن تسلطن وتم أمره فى الملك وطالت أيامه نحو ثمان سنين وشهرَيْن وأيامًا.

(١) إتحاف الورى ٤/ ٣١٧.
(٢) إتحاف الورى ٤/ ٣١٩.
(٣) انظر خبر وفاة الملك الظاهر جقمق وتولية ابنه أبى السعادات: فى النجوم الزاهرة ١٥/ ٤٥٢، والتبر المسبوك ص٤٢٧، وإتحاف الورى ٤/ ٣٢٣.
(٤) المنهل الصافى ٣/ ٢٠٩.

وكان طويلاً خفيف اللحية بحيث اشتهر بإينال الأجرود، وكان قليل الظُّلْم، قليل سفك الدماء متجاوزاً عن الخطإ والتقصير، إلا أن مماليكه ساءت سيرتهم فى الناس.

وفى ابتداء سلطنته سافر إليه[1] أمير الترك الراكز بمكة وناظر الحرم ومحتسب مكة الأمير بُرْدبك التاجى وولى عوضه أمير الترك الراكز بمكة يَشبك الصوفى وطوغان شيخ الحرم ومحتسب مكة[2].

وولى مشداً على جُدَّة جَانِبَك وهو الذى بنى البستان الذى على يسار الذاهب إلى منى المعروف به إلى الآن، وحفر فيه عدّة أبيار، وغرس فيه ما قدر عليه من الأشجار حتى شجر التمر هندى، وأدركناه فيه، ووقف عليه مسقفات بمكة، ولم يَقَعْ فى أيام الأشرف إينال عمارة للحرم الشريف.

واستمرّ سلطانًا إلى أن خلع نفسه من السلطنة وعقدها لولده الملك المؤيد شهاب الدين أبى الفتح أحمد بن إينال العلائى فى يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة، وتوفى والده بعد ذلك بيوم واحد، ثم خلعه أتابكه خُشْقَدَم بعد خمسة أشهر وخمسة أيام.

وولى السلطنة عوضه الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد خُشْقَدَم[3] الناصرى فى يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة، وهو روميٌّ جلبه الخواجا ناصر الدين وبه عُرِف، واشتراه المؤيّد شيخ وأعتقه وصار خاصكيًا عنده ثم تقلّب فى الدولة إلى أن جعله الأشرف إينال أتابكًا لولده فخلعه وتسلطن مكانه.

وكان محبًا للخير وكسا الكعبة الشريفة فى أول ولايته على العادة، ولكن كانت كسوة الجانب الشرقى والجانب الشامى بيضاء بجامات سُود، وفى الجامات التى بالجانب الشرقى بعض ذهب[4].

(١) تحرف فى ل إلى: «إلى».
(٢) إتحاف الورى ٤/ ٣٤٠.
(٣) الدليل الشافى ١/ ٢٨٦.
(٤) إتحاف الورى ٤/ ٤٢٠.

وأرسل فى سنة ست وستين وثمانمائة منبراً وكان من خشب، فركب فى يوم الأربعاء والخميس فخطب عليه الخطيب فى يوم الجمعة ثانى ذى الحجّة الحرام.

وكانت مدّة سلطنته ستّ سنين ونصف تقريبًا، ومرض فطال مرضه وتوفى يوم السبت لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وتسلطن فى ذلك اليوم خشداشه الأتابك يَلَبَاى[١] وهو الملك الظاهر أبو النصر يَلَبَاى المؤيدى وخلع على الأمير تمربُغَا الظاهرى بالأتابكية عوضًا عن نفسه[٢].

وهو الرابع عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم، وكان ضعيفًا عن تدبير الملك وتنفيذ الأمور فخلعه الأمراء من السلطنة فى يوم السبت لسبع مضين من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، وكانت مدّة سلطنته شهرين إلا أربعة أيام.

وتسلطن بعد خلعه عوضًا عنه الملك الظاهر أبو سعيد تَمُرْبُغَا الظاهرى[٣] وهو الخامس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر، ولكن يقال إنه رومىّ الأصل من مماليك الظاهر جقمق، عتقه وربّاه صغيراً إلى أن جعله خاصكيًا ثم سلحداراً ثم خزنداراً ثم دواداراً ثانيًا ثم صار فى دولة الملك المنصور دواداراً كبيراً، ثم أُخرج إلى مكة، ثم عاد إلى القاهرة فى دولة الظاهر خُشْقَدَم، فصار مقدّم ألف، ثم صار فى دولة الظاهر يلباى أتابك العساكر، ثم تسلطن، وكان له فضل وصلاح وتودُّد للناس وحذق ببعض الصنائع بحيث صار يعمل القِسِىَّ الفائقة بيده، ويعمل السهام عملاً فائقًا فيها ويرمى بها أحسن رمى يفوق غيره فيها، مع الفروسية التامّة، ومع ذلك ما صَفَا له دهره يومًا، ورماه عن كبد قوسه أبعد مَرْمى، وما زال به الأمر إلى أن خلعوه ونفوه إلى الإسكندرية.

(١) تحرف فى ل إلى: «بلباى» بالموحدة فى أوله، وصوابه من م، والنجوم الزاهرة.

(٢) إتحاف الورى ٤/٤٧٨.

(٣) الضوء اللامع ٣/ ٤٠.

وولى السلطنة أتابك العساكر يومئذ الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى[١] فى ظهر يوم الاثنين وهو سادس شهر رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة.

وهو السادس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر، مولده ببلاد جركس تقريبًا فى بضع وعشرين وثمانمائة، جلبه الخواجا محمود إلى مصر فنُسب إليه، واشتراه الأشرف برسباى وأعتقه الظاهر جقمق وإليه انتسب، وتنقّل فى المراتب إلى أن صار فى دولة الظاهر تمربغا أتابكًا، ثم صار بعد خلعه سلطانًا بعد تعزُّز منه وتمنُّع، وحصّلت له البشارة بالسلطنة من عدّة من أولياء الله تعالى الصالحين قبل أن يليها، وكان محبًا للخير معتقدًا فى الصلحاء.

حُكى عنه أنه كان يحكى عن نفسه أنه لمّا جُلب إلى مصر للبيع وهو إمّا مراهق أو بالغ كان معه رفيقه أحد المماليك الجلْب فتحادثوا مع الجَمَّال فى ليلة من ليالى شهر رمضان فقالوا لعلّ هذه الليلة ليلة القدر والدُّعاء فيها مستجاب فليَدْعُ كلٌّ واحد منّا بما يحبُّه، فقال قايتباى: أمَّا أنا فأطلب سلطنة مصر من الله تعالى، فقال الثانى، وأنا أطلب أن أكون أميرًا كبيرًا والتفت إلى الجَمَّال وقالا له: أىّ شىء تطلبه أنت؟ فقال: أنا أطلب من الله تعالى خاتمة الخير، صار قايتباى سلطانًا وصار صاحبه أميرًا كبيرًا، فكانا إذا اجتمعا يقولان: فاز الجَمَّالُ من بيننا رحمهم الله.

وكان ملكًا جليلاً وسلطانًا نبيلاً، له اليد الطولى فى الخيرات والطول الكامل فى إسداء المبرّات بنى المساجد الثلاثة وعدة رُبط ومدارس وجوامع عظيمة الآثار وباهرة الأنوار، وله بمصر والشام وغزة وغير ذلك آثار جليلة وخيرات جميلة أكثرها باقٍ إلى الآن، وجميع عمائره يلوح عليها لوائح النورانية والأنس.

وفى أول ولايته أرسل إلى مكة بالمراسيم والخلع للسيّد الشريف محمد بن

---

(١) انظر فى قايتباى: النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ص١٢١.

بركات بن حسن بن عجلان بولاية الحرمين الشريفين، وإلى قاضى القضاة بُرهان الدين إبراهيم بن على بن ظهيرة الشافعى بقضاء مكة، ومراسيم تتضمّن الأمر بإبطال جميع المكوسات والمظالم وأن ينقر ذلك على أسطوانة من أساطين الحرم الشريف فى باب السلام[١].

وفى أواخر سنة أربع وسبعين وثمانمائة والتى قبلها بنى مسجد الخيف بناءً عظيمًا محكمًا وجعل فى وسط المسجد قبة عظيمة هى حدُّ مسجد رسول الله ﷺ فى خيف مِنًى، وبُنيت جداراته المحيطة به وبنى أربع بوائك[٢] من جهة القبلة، فصارت قبة عالية فيها محارب النبىّ ﷺ، وبلصق القبة مئذنة غير المئذنة التى على عقد باب المسجد، أرى مهندسها فيها الصناعة العظيمة حيث جعلها على باب المسجد بثلاثة أَدْوار صنعة الأُسْتاذين، وبنى دارًا بلصق الباب كانت مسكن أمراء الحاج، وعلى الباب فى الدار المذكورة سبيل يُملأ من صهريج كبير جُعل فى صحن المسجد، يمتلئ من المطر، وجعل للمسجد بابًا آخر إلى جهة عرفة وخوخة صغيرة إلى الجبل الذى فى سفحه غار المرسلات، وهو الموضع الذى أُنزلت فيه سورة المرسلات على النبىّ ﷺ[٣].

وبالجملة فهذا المسجد أثر عظيم باقٍ إلى الآن من آثار المرحوم السلطان قايتباى، وقد غلب عليه الدثور عمّر الله تعالى من عمّره أو تسبّب فى تعميره.

وعمّر السلطان المذكور مسجد نمِرة فى عرفة، وهو المسجد الذى يجمع فيه الإمام بين الظهر والعصر جَمْع تقديم فى يوم عرفة للحجّاج المحرمين فى ذلك الآن لا يجمع عند أبى حنيفة فى غير ذلك الحال جمع تقديم إلا فى ذلك المسجد، ولا جمع تأخير إلا فى المزدلفة بين المغرب والعشاء للحجاج، وجعل فى صدر ذلك المسجد رواقَيْن عظيمين يتظلّل بهما الحجاج وقت

(١) منائح الكرم ٣/ ٦٨.
(٢) البوائك: هى العقود المسلسلة.
(٣) منائح الكرم ٣/ ٧٠.

الصلاة عن الشمس، وجدّد العَلَمَيْن الموضوعين لحدّ عرفة، والعلمين الموضوعين لحدّ الحرم، وبيّض المسجد الذى بمزدلفة على جبل قُزَح وهو المَشْعَر الحرام على رأى، وجدّد عين عرفات[١].

وابتدأ المعمار العمل فيها من سفح جبل الرحمة إلى وادى نعمان فوجد الماء بكثرة فاقتصر على ذلك ولم يَصِلْ إلى أُمّ العين، وكانت قد انقطعت منذ مائة وخمسين سنة، وكان الحجاج يقاسون فى يوم عرفة من قلّة الماء ما لا يُصْبَرُ عليه، ثم أصلح البرك وملأها بالماء.

ثم أصلح عين خُلَيْص[٢] وأجراها وأصلح بركتها وأجرى قُنِيَّها وامتلأت البركة وعمّ النفع بها وبعَيْن عرفات، وكان ذلك من أعظم الخيرات بالنسبة إلى الحجاج والزُّوّار.

وفى سنة تسع وسبعين وثمانمائة وصل منبر خشب للمسجد الحرام فى الخامس والعشرين من ذى القعدة إلى مكة المشرفة فى البرّ، فرُكِبَ فى جهة باب السلام وجُرّ إلى المطاف وخطب عليه الخطيب فى أول ذى الحجّة[٣].

وفى سنة إحدى وثمانين وثمانمائة أصلح خشب سقف المسجد بالرواق الشرقى وغيّر رخام الحِجْر الشريف من داخله وخارجه، ورُصِّصَت الشقوق التى بين أحجار المطاف ورُخِّم داخل البيت الشريف[٤].

وفى سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة أمر السلطان قايتباى وكيله وتاجره الخواجا شمس الدين محمد بن عمر الشهير بابن الزمن، وشادّ عمائره الأمير سُنْقُر الجمالى أن يحصّل له موضعًا مشرفًا على الحرم الشريف ليبنى له فيه مدرسة يدرّس فيها علماء المذاهب الأربعة، ورباطًا يسكنه الفقراء، ويعمّر له رُبُوعًا، ومسقفات، يحصل منها ريع كثير يُصْرَف منه على المدرّسين وعلى القُرَّاء، وأن تقرأ له ربعة فى كلّ يوم، يَحْضُرُها القضاة الأربعة والمتصوّفون،

(١) منائح الكرم ٣/ ٧١.
(٢) إتحاف الورى ٤/ ٥١٥.
(٣) إتحاف الورى ٤/ ٥٨١.
(٤) إتحاف الورى ٤/ ٦٠١.

ويقرّر لهم وظائف ويعمل مكتبًا للأيتام وغير ذلك من جهات الخير(١).

فاستبدل له رباط السدرة ورباط المراغى وكانا مُتَّصِلَيْن، وكان إلى جانب رباط المراغى دار للشريفة شمسيّة من شرائف بنى حسن اشتراها منها، وهدم ذلك جميعه وجعل فيها اثنتين وسبعين خلوة ومجمعًا كبيرًا مشرفًا على المسجد الحرام وعلى المَسْعَى الشريف، ومكتبًا ومئذنة وصيرّ المجمع المذكور مدرسة بناها بالرخام الملوّن والسقف المذهب، وقرّر فيها أربعة مدرّسين على المذاهب الأربعة وأربعين طالبًا وأرسل خزانة كتب وقفهاعلى طلبة العلم وجعل مَقَرها المدرسة المذكورة وجعل لها خازنًا عيّن له مبلغًا(٢).

وقد استولت عليها أيدى المستعيرين وضيّعوا منها جانبًا كبيرًا وبقى منها ثلاثمائة مجلّد، وهى تحت تكلّم مُؤَلِّف هذا الكتاب صُنْتُها وكمّلت بعض ما فات منها وجلّدت منها ما يحتاج إلى التجليد واستخلصت بعض ما وجدته وأعدته إلى الوقف صانه الله تعالى.

وجعل الواقف فى ذلك المجمع للقضاة الأربعة حضورًا بعد العصر مع جماعة من الفقهاء يقرءون له ثلاثين جزءًا من القرآن، وجعل فقيهًا يعلّم أربعين صبيًا من الأيتام ورتب لكلّ واحد من الأيتام وأهل الخلاوى ما يكفيهم من القمح فى كل سنة وللمدرسين والمؤذّنين وقُرَّاء الأجزاء مبالغ من الذهب تُصْرَفُ لهم كلّ سنة، وبنى عدّة ربوع ودور تغل فى كلّ عام نحو ألفى ذهب، ووقف عليهم بمصر قُرى وضياعًا كثيرة وحُبُوبًا كثيرة تُحمل إلى مكة فى كل عام، وعمل من الخيرات العظيمة ما لم يعمل ذلك سلطان قبله وذلك باقٍ إلى الآن. إلا أن الأكلة استولت على تلك الأوقاف فضعُفَتْ جدًا وهى آيلة إلى الخراب.

وصارت المدرسة سكنًا لأمراء الحاج أيام موسم الحجّ وسكنًا لغيرهم من الأمراء إذا وصلوا إلى مكة فى وسط السنة، وصارت أوقافها مأكلة للنظار

(١) منائح الكرم ٣/ ٨١.

(٢) منائح الكرم ٣/ ٨٢.

عمّر الله من عمرها وأحيَا من أحياها، وكان الفراغ من بناء هذه المدرسة والرباط والبيتين أحدهما من ناحية باب السلام والثانى من ناحية باب الحريريين فى سنة أربع وثمانين وثمانمائة على يد الأمير سنقر الجمالى رحمه الله.

وفى هذه السنة وَرَدَتْ أحكامٌ من السلطان قايتباى إلى صاحب مكة يومئذٍ مولانا السيّد الشريف جمال الدين محمد بن بركات بن حسن بن عجلان رحمه الله يتضمّن أنه رأى منامًا وأن بعض المعبّرين عبّر له ذلك المنام بغسل البيت الشريف من داخله وخارجه وغسل المطاف، وأنه[1] أمره أن يفعل ذلك، فحضر مولانا السيّد الشريف محمد بن بركات رحمه الله بنفسه، وقاضى القضاة برهان الدين إبراهيم بن على بن ظهيرة، وباش الترك الراكز بمكة الأمير قانى باى اليوسفى، والأمير سنقر الجمالى، والدوادار الكبير الأمير جَانِبَك نائب جُدَّة المعمورة وبقية القضاة والأعيان بمكة، وفاتح بيت الله الحرام عمر بن أبى راجح الشيبىُّ والشيبيُّون والخُدَّام، وغسلوا الكعبة الشريفة من داخلها قدر قامة ومن خارجها قدر قامة وغسلوا أرض الكعبة وسائر المطاف الشريف وطيّبوها بالطيب، وكان ذلك يوم الخميس لثمان بقين من ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة[2].

• فصل:

ومن أعظم ما وقع فى أيام السلطان قايتباى من الأمور الهائلة حريق المسجد الشريف النبوى ذكرناه استطراداً لأنه أمرٌ هائل عظيم الهول، وتفصيل ذلك أن فى ثلث الليل الأخير من ليلة الاثنين ثالث عشر شهر رمضان سنة ست وثمانين وثمانمائة طلع رئيس المؤذّنين الشيخ شمس الدين محمد بن الخطيب إلى المئذنة الشريفة اليمانية من ركن المسجد الشريف المعروفة بالريسية

(١) فى ل: «أمنه» والمثبت رواية م.
(٢) إتحاف الورى ٤/ ٦٢٠ ـ ٦٢١.

وهو يذكر ويمجّد، وكانت السماء متراكمة الغيوم متوارية النجوم، إذ سُمع رعدٌ هائل وسقطت صاعقة لها لهبٌ كالنار أصاب بعضها هلال المئذنة فانشق رأسها ومات المؤذن رحمه الله، وسقط باقيها على سقف المسجد الشريف عند المئذنة فعلقت النار فيه ففُتحت أبواب المسجد ونُودى بالحريق فى المسجد، فحضر أمير المدينة يومئذ السيّد قسطل بن زهير الجمالى وشيخ الحرم والقضاة وسائر الناس، وصعد أهل النجدة والقوة إلى سطح المسجد بالمياه فى القرب يسكبونها على النار لتُطْفَأ فالتهبت وأخذت فى جهة الشمال والمغرب وعجزوا عن إطفائها فهربوا واستولت النار عليهم فمات منهم فوق عشر أنفس، وعظمت النار جدًا، وأحاطت بجميع سقف المسجد الشريف وأحرقت ما فى المسجد من المصاحف وخزائن الكُتُب والربعات وكانت كُتُبًا نفيسة ومصاحف عظيمة، وصار المسجد كبحْر لُجِّىٍّ من النار يرمى بشَرَر كالقصر إلى أن استوعب الحريق جميع المسجد والقبّة العليا التى فوق قبّة النبى ﷺ وذَابَ رَصَاصُه ولم يصلْ أثر النار إلى جوف الحجرة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام لسلامة القبّة السُّفْلَى وعدم التأثير فيها مع ما سقط عليها كما هو أمثال الجبال واحترقت حتى حجارة الأساطين، وسقط منها نحو مائة وعشرين أسطوانة، واحترق المنبر الشريف النبوى والصندوق الذى فى المُصَلَّى الشريف والمقصورة التى حول الحجرة الشريفة، وسلمت الأساطين الملاصقة للحجرة الشريفة وسلم ما حول المسجد من البيوت وشوهد أشكال طيور بعض يحومون حول النار كأنها تكفُّها عن بيوت جيران النبى ﷺ مع وقوع بعض شَرَر النار فيها وعدم تأثيره فيها[1].

قال مؤرخ المدينة وعالمها وفقيهها مولانا السيّد نور الدين على بن عبد الله السَّمْهودى رحمه الله بعد سوق هذه الحكاية بأبسط من هذا فى كتابه خُلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ: وفى ذلك عبرة تامّة وموعظة عامّةٌ أبرزها الله

(١) وفاء الوفا ٢/ ٦٣٣.

تعالى للإنذار، فخصّ بها حضرة النذير الأعظم ﷺ، وقد ثبت أن أعمال أُمَّته تُعْرَضُ عليه فلمّا ساءت الأعمال المعروضة ناسب ذلك الإنذار بإظهار النار المجازَ بها فى يوم العرض قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦][١].

قال: وشرعوا فى تنظيف المسجد ونقضوا ما به من الأنقاض ونقلوها من مقدّم المسجد إلى مؤخّره للصلاة فيه، وعمل فى ذلك أمير المدينة وقضاتها وعامّة أهلها حتى النساء والصبيان تقربًا إلى الله تعالى[٢].

وبادروا بإرسال قاصد إلى مصر، وعرضوا ذلك على السلطان قايتباى رحمه الله فتهوّل من هذا الحادث العظيم، وتوجّه إلى عمارة المسجد الشريف وعرف نعمة الله تعالى عليه بتأهيله لهذا الشرف العظيم، ورسم بإبطال جميع العمائر المكية وغيرها وأن يتوجّه شادّها السيفى جمال الدين سنقر الجمالى مبادرًا إلى المدينة الشريفة، وأرسل إليه نحواً من ثلاثمائة من أرباب الصنائع وكثيراً من الحمير والجمال والبغال وسائر مُؤَنهم ومبلغًا من الخزانة نحو مائة ألف دينار فأكثر، وجهّز المؤن الكثيرة إلى أن امتلأت البنادر بها كالطور واليَنْبُع، ونقلت إلى المدينة الشريفة واستقبلوا العمارة بجدٍّ واجتهاد إلى أن كملت عمارة المسجد الشريف والقبّة الشريفة والمآذن، وفرغوا منها على هذا الوجه الذى هو عليه الآن فى هذا الزمان[٣].

وذكر السيّد السمهودى رحمه الله تفصيله فى كتابه خُلاصة الوفا فراجعهُ إن أردتَ إحاطة العلم به، وذكره بأبسط من ذلك فى تاريخه الكبير الذى سمّاه وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ.

وأمر السلطان قايتباى أن يبنى له رباط ومدرسة ومئذنة حول المسجد

---

(١) وفاء الوفا ٢/ ٦٣٧.

(٢) وفاء الوفا ٢/ ٦٣٦.

(٣) وفاء الوفا ٢/ ٦٣٩.

الشريف النبوى فبنوا له مدرسة عظيمة ورباطًا مشرفًا على المسجد الشريف ما بين باب السلام وباب الرحمة وأرسل إلى المدرسة خزانة كُتُب جليلة جعل مقرّها المدرسة موقوفة على طلبة العلم الشريف، وأرسل مصاحف كثيرة وكُتُبًا لخزانة المسجد الشريف عوض ما احترق فيه منها، ووقف قُرًى كثيرة بمصر تُحمل غلاتها إلى جيران رسول الله ﷺ فيفرّق عليهم لكلّ شخص ما يكفيه من الحبّ بطول السنة، فكان حصّة كل نفر سبعة أرادب فى العام، سَوَّى فى ذلك بين الصغير والكبير والحُرّ والعبد، وذلك الخير جارٍ إلى الآن وزاد عليه الآن سلاطين آل عثمان أكثر ممّا وقفه السلطان قايتباى لمكة والمدينة جزى الله المحسنين خيراً وضاعف لهم ثوابًا وأجراً إنه كريم حليم.

* * *

فصل فى حج السلطان قايتباى[1] رحمه الله تعالى

اعلم أن ملوك الجراكسة ما حجّ منهم أحد غير السلطان قايتباى لتمكنه فى الملك وكثرة ما فعله من الآثار الجليلة فى الحرمين الشريفين، فأقام الأمير الكبير يشبك الدوادار نائبًا عنه بمصر وخرج إلى الحجّ فى سنة أربع وثمانين وثمانمائة قبل وقوع حريق المسجد الشريف النبوى بنحو عامين، وكان أمير الحاج فى عام حجه الأمير خشقدم خرج بالمحمل الشريف وبركب الحاج المصرى، فخرج السلطان قايتباى بقصد الحج والزيارة بعد خروج ركب الحاج بثلاثة أيام، ووصلت القُصّاد إلى شريف مكة يومئذ سيدنا ومولانا المقام العالى جمال الدنيا والدين السيد محمد بن بركات بن حسن بن عجلان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان، وكان من أخص المخصوصين به، وصاحب الحل والعقد عنده قاضى القضاة شيخ الإسلام مولانا القاضى برهان الدين إبراهيم بن على بن ظهيرة القاضى الشافعى يومئذ بمكة طيب الله

(١) انظر فى حج السلطان قايتباى: منائح الكرم ٣/ ٨٦.

ثراه فتهيأ هو والسيد الشريف محمد بن بركات لملاقاة السلطان فإن القصاد أخبروا أنهم فارقوه من عقبة أيلة وهى نهاية الربع الأول من طريق الحج وأرسل مولانا السيد الشريف أحد قواده ليسبقه إلى ملاقاة السلطان بسماط حلوى، فوصل إلى الحوراء ولاقى السلطان ومد له السماط الحلوى هناك، فجلس عليه السلطان بنفسه وأظهر غاية اللطف والمجابرة وأكل وقسم على أمرائه وعسكره، وكان سماطًا كبيراً جليلاً.

ويحكى من لطافة السلطان قايتباى أنه لما جلس على السماط تناول شيئًا من الحلوى يقال له كل واشكر فأكل منه وسأل من الذى جاءه بالسماط أيش اسم هذا عندكم؟ فقال له القائد: هذا اسمه كل واشكر، فقال له: سلم على سيدك، وقل له: أكلنا وشكرنا(١).

ثم لما وصل السلطان إلى الينبع عدل منه إلى المدينة النبوية لزيارة النبى ﷺ وتوجه إليها، وكان قد خرج لملاقاته سيدنا ومولانا الشريف محمد بن بركات وولده السيد هيزع بن محمد ومولانا القاضى إبراهيم بن ظهيرة الشافعى وابنه القاضى أبو السعود وأخوه أبو البركات بن ظهيرة قاضى جُدَّة فبلغهم فى أثناء الطريق أن السلطان عدل إلى زيارة النبى عليه الصلاة والسلام، فتوجهوا إلى منزلة بدر وأقاموا به منتظرين عود السلطان من المدينة الشريفة(٢).

قال السيد على السمهودى فى تاريخه الكبير: حج السلطان الملك الأشرف قايتباى فى سنة أربع وثمانين وثمانمائة، وبدأ بالمدينة النبوية لزيارة التربة المصطفوية على الحال بها أفضل الصلوات وأزكى التسليمات، فقدمها طلوع الفجر من يوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى القعدة الحرام، فلبس لدُخُولها حُلل التواضع والخشوع، وتحلَّى بما يجبُ لتلك الحضرة النبوية من الهيبة والخضوع، فترجّل عن فرسه عند باب سورها، ومشى على أقدامه بين

(١) منائح الكرم ٣/ ٨٦ ـ ٨٧.
(٢) منائح الكرم ٣/ ٨٧.

ربوعها ودورها، حتى وقف بين يدى الجناب الرفيع، الحبيب الشفيع، عليه الصلاة والتسليم، وناجاه بالتسليم، وفاز من ذلك بالحظّ الجسيم، ثم ثنّى بضجيعَيْه رضى الله عنهما بعد أن صلّى بالروضة الشريفة التحيّة، وعفّر جبهته فى ساحتها السَّنِيَّة، وعرض عليه الدخول إلى الحجرة الشريفة فتعاظم ذلك، وقال: لو أمكننى أن أقف أبعد من هذا الموضع وقفت فالجناب عظيم، ومن ذا الذى يقوم بما يَجب له من التعظيم[1]؟

ثم صلّى صُبح الجمعة فى الروضة الشريفة فى الصفّ الأول بين فقراء الزُّوَّار وإلى جانبه الشيخ الإمام العلامة برهان الدين بن الكركى، ثم توجه لزيارة السيّد حمزة عمّ النبى ﷺ ومن حوله من الصحابة الذين استشهدوا يوم أُحُد رضوان الله عليهم أجمعين، فمشى مترجّلاً حتى خرج من باب المدينة، ولم يزل ذلك دأبه ولم يركب بالمدينة تَأَدبًا مع النبىّ ﷺ، وعاد من الزيارة وحضر لصلاة الجمعة[2].

قال السيّد السمهودى، رحمه الله: فبدأنى السلطان بالملاطفة وسألنى عن بعض المباحث، فرأيت من تواضعه وحلمه وثقوب فهمه ما يفوق وصف الواصف فأنشدته بَيْتَىِ التلخيص وهما:

كانت مساءلة الركبان تخبرنى عن أحمد بن سعيد أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعتْ أذنى بأطيب ممّا قد رأى بَصَرِى

فطرب بهما جداً[3].

واجتمعت به قرب صلاة المغرب فى الروضة ففاتحنى بالكلام ورأى فى المحراب النبوى مكتوبًا قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٤]، فسألنى عن هذه الآية، هل نزلت قبل المعراج أم بعده؟ وكيف كان الاستقبال قبل نزولها؟

(١) وفاء الوفا ٢/ ٧١٠.
(٢) وفاء الوفا ٢/ ٧١١.
(٣) وفاء الوفا ٢/ ٧١٢.

فشرعت له فى الجواب، فأقيمت الصلاة فى أثناء ذلك فصلينا، فلمّا فرغ من هذه الصلاة صلّى ست ركعات بسكون وتأدُّب، فلمّا انقضت الصلاة أقبل علىّ طالبًا للجواب فذكرت له أن نزولها بالمدينة، وأن فرض الصلاة كان بمكة ليلة المعراج، وذكرت له ما حُكى فى تعدّد نسخ القبلة وصلاته ﷺ بمكة بين الركنين اليمانيّين جاعلاً الكعبة بينه وبين بيت المقدس إلى غير ذلك من الفوائد وهو مُصْغٍ إليها متلذّذ بسماعها، فاستمرّ بنا على ذلك حتى أقيمت صلاة العشاء فصلينا، ثم عرضت عليه رفع بعض البدع من المدينة فأمر برفعها، وطلبت منه رفع المكوس من المدينة فأمر بإزالتها، وجعل لأمير المدينة فى مقابلة ذلك ألف إردب قرّرها له فى كلّ عام، وفرّق بالمدينة الشريفة على فقرائها وفقهائها وعلمائها نحو ستّة آلاف ذهب، وحصل لى منه خير كثير وإحسان جزيل ثم برز فى اليوم الثالث من المدينة الشريفة قاصدًا حجّ بيت الله الحرام[1]. انتهى كلام السيد السمهودى ملخصًا.

قال العزّ بن فَهْد[2]: فلمّا وصل الخبر إلى بدر بعود السلطان وبُرُوزه من المدينة الشريفة إلى السيد الشريف محمد بن بركات ومن معه، ركبوا من بدر لملاقاة السلطان فاجتمعوا به فى منزلة الصفراء وتلاقيا على ظهور الخيل وتصافحا، ومشى السيد الشريف عن يمين السلطان، والقاضى برهان الدين ابن ظهيرة عن يساره، وباقى من معهما سلموا على السلطان على بُعد ومشوا أمامه، وصار السلطان يلاطفهم ويسأل عن أحوالهم ويشكر مسعاهم ويطمئن خواطرهم ويجابرهم بالمكالمة وينصت لهم إذا تكلّموا، واستمرّوا كذلك إلى أن وصل السلطان أوطاقه فرجعوا عنه إلى مُخَيَّمهم ثم صاروا يسايرونه فى الطريق ويظهر كمال النشاط ويبدى لهم وافر الانبساط، وألبسهم السلطان خلعًا فاخرة مرارًا عديدة.

وفارقوه من بدر وتقدّموا على السلطان إلى وادى مرّ الظهران ورتبوا هناك

(١) وفاء الوفا ٢/ ٧١٢.

(٢) غاية المرام ٢/ ٥٣٣.

سماطًا حافلاً جميلاً للسلطان ولمن معه.

فلمّا كان صُبح يوم الأحد مستهلّ ذى الحجّة وصل السلطان مُخَيَّمَه بالوادى ووجد السماط ممدودًا فجلس السلطان ومن معه على السماط وأكل منه وأطعم وفرّق على من معه من عسكره الخاصّ به، وخلع على الخُدَّام والأنفار الذين مدُّوا السماط خلعًا فاخرة متعدّدة جميلة ووصل بقية القضاة والخطباء والأعيان من مكة للسلام على السلطان، فسلموا عليه وانصرفوا أمامه، وركبوا وركب السلطان ومعه شيخ الإسلام القاضى إبراهيم بن ظهيرة، وولده القاضى أبو السُّعُود وأخوه القاضى أبو البركات وإمام السلطان الشيخ برهان الدين الكركى الحنفى، واستمرّوا إلى أن دخلوا مكة من أعلاها.

وكان القاضى إبراهيم هو الذى تقدّم لتطويف السلطان وصار يلقنه الأدعية والتلبية إلى أن وصل السلطان ودخل من باب السلام البرّانى، فطلع بفرسه منه فجفل به جواده فسقطت عمامته، واستمرّ مكشوف الرأس إلى أن تقدّم المِهْتار رمضان وتناول العمامة من الأرض ومسحها وناولها السلطان فلبسها، وكان ذلك تأديبًا له من الله تعالى حيث كان يتعيّن عليه أن يترجّل ويدخل مُحْرِمًا مكشوف الرأس تواضُعًا لله تعالى.

ثم لمّا وصل إلى العتبة الداخلة من باب السلام ترجّل ونزل وقرأ بين يديه الرئيس بصَوْت جَهْوَرِىّ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح:٢٧، ٢٨] ثم إنه رفع يديه للدُّعاء للسلطان وأمن من حوله من أهل الأصوات، ودخل من باب السلام ومولانا القاضى إبراهيم يُلَقّنه الدعاء إلى أن دخل الطواف وقبّل الحجر الأسود، وهو الذى يُطَوّفه ويُلَقّنه الأدعية والرئيس ينادى بالدعاء له من أعلى قبّة زمزم، والناس محيطون بالمطاف الشريف يشاهدونه ويدعون له إلى أن أتمّ طوافه

وصلى خلف مقام إبراهيم(١).

ثم خرج من باب الصَّفَا إلى الصفا وسَعَى راكبًا ومعه مولانا القاضى إبراهيم يلقّنه الدعاء، فلمّا فرغ من سَعْيه ركب فعاد إلى الزاهر وبات فى مخيّمه، وركب فى الصُّبح فى موكبه ولاقاه مولانا الشريف السيد محمد بن بركات وأولاده وقاضى القضاة البرهان إبراهيم بن ظهيرة وابنه الجمال أبو السعود وأخوه القاضى فخر الدين وابن عمّه والخطباء وأعيان الناس وأكابر التجار، فخلع السلطان قايتباى على الجميع ومشوا أمامه فى موكب عظيم وأُبَّهة عظيمة، ولم يتخلّف أحد بمكة من الرجال والنساء حتى المخدّرات(٢).

ودخل مكة بهذا العُنوان إلى أن وصل إلى مدرسته فترجّل الناس له وسلم عليهم، ودخل إلى مدرسته ومَدَّ له بها مولانا السيد الشريف محمد بن بركات سماطًا حافلاً جليلاً واستمرّ على ذلك تُمَدُّ له صُبْحًا وليلاً الأسمطة الجميلة، ومَدَّ له فى ثانى يوم قاضى القضاة البرهان إبراهيم سماطًا جميلاً، واستمرّ السلطان بمدرسته ما ظهر لأحد غير أنه يتصدّق بالليل كثيراً.

وركب مَرَّةً إلى درب اليمن ليشاهد ما قدم له مولانا السيد الشريف من الإبل والخيل وتشكر من فضل السيد الشريف، واستمرّ بمدرسته إلى أن طلع إلى عرفات ومعه إمامه راكب إلى جانبه وهو شيخ الشيوخ البرهان إبراهيم ابن الكركى، والأمير يشبك الجمالى، وأولاد القاضى يحيى بن الجيعان كاتب السرّ، وحفيده القاضى أبو البقاء بن الجيعان، ورمضان المهتار، ووقف بجبل الرحمة متضرعًا إلى الله تعالى سائلاً من رحمته القبول، وكانت الوقفة يوم الاثنين فأفاض مع الناس وأتمّ حجّه وقرّب الأضاحىَّ غنمًا كثيرة، وأهدى شيئًا كثيرًا، وكان يناسب أن ينحر شيئًا من البُدْن فما أشار عليه أحدٌ بشىء من ذلك.

وعاد بعد أيام التشريق إلى مكة، وتوجّه الركب المصرى وتَأَخَّرَ هو بمكة

(١) منائح الكرم ٣/ ٩٠.
(٢) منائح الكرم ٣/ ٩١.

أيامًا، وقرّر وظائف مدرسته لأهلها من المدرّسين والطلبة، وقرأة صحيح البخارى، وقرأة الربعة، وخادمها وخادم المصحف والفرّاشين والبوّابين والوقّادين والخبّازين والسَّقَّاءين والبئيل والأيتام والعريف والفقيه والمؤذنين وناظر المدرسة والوقف والجابى والصيرفى وأصحاب الخَلاَوى ونحو ذلك، وجعل لكلّ واحد كفايته من القَمْح والدراهم والزيت وكتب بذلك وقفية أشهد على نفسه بذلك فيها، وعمل من الخيرات ما لم يُسبق إليه(١).

وحضر بنفسه يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجّة بطرف الإيوان الشمالى وقاضى القضاة البرهان إبراهيم بن ظهيرة بصدر الإيوان، وقدامه المصحف على كرسى، وفرق على الحاضرين أجزاء الربعة الشريفة، وتناول السلطان جُزْءًا منها كأحد القُرَّاء، وقرءوا إلى أن ختم القاضى إبراهيم ولم يُؤخذ من السلطان الجزء حتى وضعه بنفسه وجُمعت الأجزاء فى صَنْدُوق الربعة، ودعا الداعى للسلطان، ومدّ للحاضرين سماط حلوى بدَوْر المدرسة، ونزل السلطان وجلس إلى جنب القاضى إبراهيم وأكلوا ثم سقاهم سُكَّرًا وسُوبية، وفرق عليهم فتوحًا وانصرفوا(٢).

ثم بنى السلطان سبيلاً على يمين الداخل إلى خان البزّازين بالمَسْعَى يقال له العلقمية، وكان أمامه إلى جهة القبلة بالمسعى سبيل قديم للقاضى شهاب الدين الطبرى على يمين الذاهب إلى المروة، فأشار الخواجا شمس الدين بن الزمن والمهندس أن يهدم هذا السبيل حتى تظهر عمارة السلطان وسبيله، فهُدِمَ وصار المَسْعَى مكشوفًا وعمارة الخان والسبيل ظاهراً.

وخرج السلطان فى ظهر يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من ذى الحجّة بعد أن طاف للوداع والرئيس يدعو له على قبّة زمزم، ومشى القَهْقَرى إلى أن خرج من باب الحزورة وركب معه السيد الشريف محمد بن بركات وأولاده وقاضى القضاة إبراهيم بن ظهيرة إلى الزاهر ثم ردّهم وودعهم(٣).

---

(١) منائح الكرم ٣/ ٩٢.

(٢) منائح الكرم ٣/ ٩٢.

(٢) منائح الكرم ٣/ ٩٣.

وسار إلى مصر وعاد إلى مملكته لم يختل عليه شيء من أمر ملكه مع غيبته عن تخت مصر مدّة سفره إلى الحجّ وعوده إليها، وهو نحو ثلاثة أشهر، وذلك لإتقانه أمر المملكة وتدبيره فيه وضبطه(١) رحمه الله.

وكان واسطة عقد ملوك الجراكسة، وأقربهم إلى قلوب الرعية فى اللُّطف والمؤانسة، وأجملهم جمالاً وإجمالاً، وأحسنهم إحسانًا وأفضلهم إفضالاً، وأكملهم عقلاً ونُبْلاً واعتدالاً، وأكثرهم فى جهات الخير آثارًا، وأوفرهم عمائر وأوقافًا وإدرارًا، وأطولهم طولاً وزمانًا، وأكملهم ملكًا وقُوَّةً وإمكانًا، وكانت أيامه كالطراز المذهب، ودولته تنجلى كالعروس فى حُلَل الجواهر والذهب، وعاشت الرعية فى أيامه عيشًا رَغَدًا، وظهرت العلماء فى أيامه ونموا فصاروا نجوم الهُدَى، إلى أن تنبّه له الزمان الجائر واستيقظت له عيون صروف الليالى والجدود العواثر، ودارت عليه كما دارت على من قبله الدوائر، وهذا شأن الدنيا الدنيّة فى أبنائها الأصاغر والأكابر، ودأبها فى السلاطين والملوك الغوابر، والبقاء والدوام لله عَزَّ وَجَلَّ القدير القاهر، فقدم على قايتباى يريدُ أجله، وما أغنى عنه ما جمعه من خيله وخَوَله، ولا منع عنه شيء من حيله وحوله، فأقدم على ما قدّم من صالح عمله، وترك ما خوّله من متاع الدنيا وراء ظهره، وأُدْرِجَ فى أكفان أعماله بعد ما غسل بدموع فقره، وأنزل من سرير الملك على التابوت إلى قبره، وقدم على ربٍّ كريم، ووقف بين يدى ملك غفور رحيم، وأنشد لسان حاله وهو بين يدى ملك الملوك الحكيم الحليم:

إذا أمسىَ فراشى من تراب ... وصرت مجاور الرمس الرميمِ
فهنّونى أصيحـا بى وقولـوا ... لك البشرى قدمت على كريمِ

وكان انتقاله إلى رحمة الله تعالى فى أواخر يوم الأحد لثلاث بقين من ذى القعدة سنة إحدى وتسعمائة وصُلّى عليه يوم الاثنين ودفن فى الصحراء بتربته بناها فى حياته فى غاية الحسن والزينة وبها مساكن للقُرَّاء وأوقاف دارّة

(١) منائح الكرم ٣/ ٩٣.

عليهم إلى الآن، ليس بمصر أحسن تربة منها، وصلى عليه بعد ذلك صلاة الغائب بالمساجد الثلاثة، وكان له مشهد عظيم لم يُعْهَد لملك قبله، وكانت مدّة سلطنته ثلاثين سنة، إلا ثمانية أشهر، ولم يملك أحد من ملوك الجراكسة قدر مدّة ملكه.

وتولّى بعده الملك ولده الملك الناصر أبو السعادات محمد[1]، وكان شابًا يغلب عليه الجنونَ والسَّفهُ، ما كان له التفات إلى الملك ولا إلى السلطنة، بل غلب عليه اللّهْوُ واللعب والحركات المستبشعة.

يُحْكى عنه أمورٌ قبيحة، منها أنه كان إذا سمع بامرأة حسناء هجم عليها وقطع دائر فرجها ونظمه فى خيط أَعَدَّهُ لنظم فروج النساء[2]، ومنها أن والدته وكانت من أعقل النساء وأجملهن هَيَّأتْ له جارية جميلة جدًا وجمعتها به فى بيت مزيّن أعدتّه لهما فدخل بها وقفل الباب على نفسه وعليها وربَطها وشرع يسلخ جلدها عنها كالجَلاَّدين وهى حيّة فلمّا سمعوا صوت بكائها أرادوا الهجوم عليه فما أمكنهم لأنه قفل الباب من داخلٍ، واستمرّ كذلك إلى أن سلخها وحشى جلدها بالثيوب، وخرج يظهر لهم أستاديته فى السلخ وأن الجَلاَّدين يعجزون عن كماله فى صنعته، ومنها أنه مر وهو فى موكبه بدُكَّان حلوانىّ يبيع الحلاوة وبسطته قدامه فأقامه من دُكانه وجلس مكانه يبيع الحلاوة ودار حوله أمراؤه يشترون منه الحلاوة، وأخذ بيده الميزان وصار يزن لهم الحلاوة إلى أن جبرت[3]، وكذلك دُكَّان الأقسمة والكُدْس وغيرها، وكانت له حركات من هذه الخرافات منها ما يضحك ومنها ما يبكى إلى أن سقط من أعين العسكر، وسطوا عليه كما سطى بالحسام الأبتر، وسلخوه من ملكه كما سلخ تلك الضعيفة بالخِنْجَر، ومزّقوه كل ممزّق ولعذابُ الآخرة أكبر.

---

(١) انظر فى الناصر محمد: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ص١٤٦، وبدائع الزهور ٣/ ٣٣٢.

(٢) اكتفى ابن إياس بقوله فى الموضع المماثل ٣/ ٤٠٣: «ووقع منه أمور شنيعة فى مدة سلطنته لا ينبغى شرحها».

(٣) فى ل: «حيرت» وصوابه من م.

فمن غُروره أنه خرج متخفيًا منفردًا عن عبيده وخدمه متباعدًا عن خوله وحشمه فتوجّه يمشى وحده إلى برّ الجيزة، فأكمن له عشرة أنفس من مماليك أبيه فى خيمة على ممرّه فلما وصل إليهم وكان وحده منفردًا خرجوا عليه من الخيمة ومسكوا بلجام فرسه وضربوه بالسيوف إلى أن قطعوه وجاءوا به مقتولاً إلى القاهرة ودفنوه فى تربة أبيه فى سنة أربع وتسعمائة.

ثم ولوا بعده خاله الملك الظاهر أبا سعيد قانصوه[١]، وهو خال الناصر محمد بن قايتباى كان ساذجًا أميًا لا يعرف إلا بلسان الجركس قريب العهد ببلده، لأن السلطان قايتباى جلبه من بلاده وهو كبير وَخَطَهُ الشيب، وصار يرقيه بواسطة زوجته خَوَنْد أمّ الناصر لأنه أخوها وهى التى أقامته مقام ولدها الناصر وبذلت له الأموال والخزائن وأرادت تقويته وإقامته وإصلاحه، ولن يُصلح العَطَّار ما أفسد الدهر، فما استكمله الجند للإيالة وما أهّلوه للسلطنة وكيف له بها وأنَّى له، فخلعوه بعد أن ساسهم سنة وسبعة أشهر وأخرجوه من الملك فى أواخر سنة خمس وتسعمائة، وولوا بعده السلطنة الأمير الكبير جان بلاط، وتلقّب بالملك الأشرف جان بلاط[٢] فى أوائل سنة ست وتسعمائة ولا تَهَنَّأ بالسلطنة ولا وافقه أحد عليها وخلع بعد ستة أشهر.

وتولى مكانه الملك العادل طومان باى[٣]، وما استكمل يومًا واحدًا، بل هجم عليه العسكر وقتلوه، فما قدم أحد على السلطنة، وكانت الأمراء متوفّرة وكلهم يشير بعضهم إلى بعض فى الجلوس على تخت الملك، فاتفقوا على أن يولوا قانصوه الغورى لأنهم رأوه ليّن العريكة سهل الإزالة أى وقت أرادوا إزالته أزالوه، لأنه كان أقلّهم مالاً وأضعفهم حالاً وأوهنهم قوّة، فأشاروا عليه أن يتقدّم فَأَبَى فألزموه بذلك فقال: أقبل ذلك منكم بشرط أن لا تقتلونى فإذا أردتم خلعى من السلطنة أخبرونى بما تريدونه وأنا أوافقكم على

---

(١) انظر فى سلطنة الملك الظاهر قانصوه: بدائع الزهور ٣/ ٤٠٤.

(٢) انظر فى سلطنة جان بلاط: تحفة الأحباب ص١٤٦.

(٣) المصدر السابق.

ذلك وأترك لكم الملك وأمضى حيث أريد، فعاهدوه على ذلك فقبل منهم وولوه السلطنة ولقّبوه الملك الأشرف أبا النصر قانصوه الغورى[١] فى سنة ست وتسعمائة، وفرح العسكر بولايته لأنهم سَئِمُوا تعدُّد السلاطين وسُرعة تقضّى ملكهم بل فرح العامّة وأمنوا على أنفسهم وأموالهم فى الجملة، وكان قانصوه الغورى كثير الدهاء، ذا رأى وفطنة وتيقُّظ، إلا أنه كان شديد الطمع كثير الظلم والعسف بخيلاً محبًا للعمارة، ومن جملة عماراته الجامع والتربة بالقرب من بين القصرَيْن بمصر، وكان فى نيّته أن يُدْفَن بها، ووقف عليها أوقافًا كثيرة، وما قُدِّرَ له دفنه فيها، بل ذهب تحت سنابك الخيل وما عُرف ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤][٢].

وله آثار جميلة فى طريق الحجّ فى عقبة أيلة ومآثر بمكة المشرفة وغيرها وكان يحفظ حُرمته على الأمراء بالدربة والتنزُّل معهم من غير تشديد عليهم ولا إظهار عظمة أو أمر أو نهى، وذلك فى ابتداء أمره إلى أن تمكّن من قوّته وبأسه[٣].

حكى شيخنا الشيخ شهاب الدين أحمد بن موسى بن عبد الغفّار المغربى الأصل ثم المصرى نزيل الحرَمَيْن وهو ألطف من أخذنا عنه رحمه الله عن والده وكان من المباشرين أرباب الأقلام فى ديوان السلطان قانصوه الغورى رحمه الله، قال: استشمّ الغورى مبادئ فتنة أرادوا الأمراء إحداثها وأرادوا أن يجعلوها مقدّمة لخلعه من السلطنة، فلمّا استشعر الغورى ذلك منهم عمل ديوانًا جمع فيه الأمراء والمقدمين وأمرهم بالجلوس وجلس بينهم كأحدهم، وكانت عادة الأمراء، الوقوف بين يدى السلطان ولا يجلسون معه إلا على السماط فى الأكل فقط، فلما أجلسهم وجلس بينهم استنكروا ذلك منه وصاروا يفتقدون عن سبب ذلك وكلٌّ مُصْغٍ إلى ما يقول متوجّه إلى السلطان

(١) انظر فى سلطنة الملك الأشرف قانصوه الغورى: بدائع الزهور ٤/ ٢.
(٢) المنح الرحمانية ص٧٧.
(٣) المصدر السابق.

غاية التوجُّه، فقاله لهم: يا أغوات، إنما جمعتكم لأسْألكم سُؤالاً خطر ببالي وأطلب منكم جوابه على الوجه الذى ترونه صوابًا، فقالوا: نعم، فقال: أسألكم عن جماعة جاءوا إلى رجل وناولوه صُرَّةً من الدراهم مربوطة مختومة وأودعوها عنده فقال لهم: أنا أستودع منكم هذه الوديعة بشرط أن تأتونى وتطلبوا وديعتكم منى بلا نزاع معى ولا خصومة فأرد وديعتكم إليكم، فقالوا له: نعم قبلنا منك هذا الشرط وأَوْدعوه ومضوا، ثم عادوا إليه بعد مدّة وقالوا له: نريد الوديعة بنزاع شديد وخصومة ومضاربة، فقاله لهم: هذه وديعتكم حاضرة خذوها بلا نزاع وضرر معى كما اشترطت عليكم، فقالوا: لا بل لا بُدَّ لنا معك من الخصام والنزاع، فأيُّهم على الباطل وأيُّهم على الحق؟ ففهموا مُراده واستعفوا منه فقال لهم: أنا ما جلست معكم إلا لتعلموا أنى كأحدكم لا أمتاز عنكم بشىء وهذه السلطنة أسلّمها لأيّكم أراد ولا أنازع فيها ولا أخاصمكم عليها، وإنما أنا والله من الجند[١].

فقبّل كلٌّ منهم يده وأذعنوا له بالسلطنة وسألوه فى استمراره سلطانًا عليهم وسكنت الفتنة بهذا التدبير وغفلوا عنه مدّة واشتغلوا عنه بضرورات أُخْرى وطال معه الحبل إلى أن صار يأخذهم واحدًا بعد واحد ويتغافل، ثم يحصل حيلة أُخْرى وعلّة أخرى لأخذهم فيأخذهم بها، ويوقع بين الاثنين ويأخذ هذا بذاك وذاك بذا ويدسّس لهم الدسايس من الطعام السمّ ونحوه حتى أفنى فَرَانستهم ودُهَاتهم إلا قليلاً منهم[٢].

واتخذ مماليك لنفسه جُدَدًا، واستجلب جُلْبَانًا وأَعَدَّ عَدَدًا وعُدَدًا، فصاروا يظلمون الناس ظُلْمًا، ويعاملون الخلق عسفًا وغشمًا، وصار يغضى عنهم ويتغاضى لهم فأظهروا الفساد، وأهلكوا العباد، وأكثروا العناد، وطغوا فى البلاد[٣].

---

(١) المنح الرحمانية ص٧٧ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

وصار هو يصادر الناس، ويأخذ أموالهم بالقهر والباس، وكثرت العوانية فى أيامه لكثرة ما يصغى إليهم، وصاروا إذا شاهدوا أحدًا توسع فى دنياه، أو أظهر التجمُّل فى ملبسه أو مثواه، دَسُّوا به إلى السلطان، فيرسل إليه الأعوان، ويطالبه بالقرض ويستصفى أمواله، ويسلّمه إلى الصوباشى[١] ليأخذ ماله، ويهتك أهله وعياله، ويعذبه بأنواع الأشكنجه[٢] إلى أن يصير فقيرًا بعد غناه، ومُعْدمًا بعد ثَرْوَته واستغناه، وجمع من هذا الباب أموالاً عظيمة، وخزائن واسعة جسيمة، ذهبت فى آخر الأمر سُدى، وتفرّقت بيد العدَا، وتمزّقت بَدَدًا، وهكذا كلّ مال يؤخذ على هذا الأسلوب، ويُجْمَع على هذا الطريق المنكوب، لا ينفع مَنْ جمعه، بل يضرُّ صاحبه ويهلك معه، وهيهات أن ينفع مال حصل بأنين كلّ حزين، وسُلب بالقهر والعُسر من كل مظلوم مسكين، وكيف ينفع سالبه، ولا نفع صاحبه، وكيف يتهَنّى به من اكتسبَهُ، على هذا الوجه وأبكى كاسبَهُ.

إلا إن مالاً كان من غير حِلِّه سيُخْرِب يومًا أهله وأقاربه[٣]

وأمّا الميراث فبطل فى أيّامه، وصار إذا مات أحد يؤخذ ماله جميعه للسلطنة ويترك أولاده فقراء إلا إن اعتنى به اعتناء كبيرًا، جعل له نزرًا يسيرًا، من مال أبيه، وأخذ لنفسه باقيه، واشتدّ طمعه، وكثر ظلمه، فى آخر أيّامه، فاستجاب الله فيه دُعاء المظلومين، فقطع دابرُ القَوْم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين[٤].

حكى لى والدى رحمه الله تعالى عن شخص كان مجاب الدعوة من أولياء الله تعالى أنه رأى بمصر فى آخر أيام السلطان الغورى جنديًا من الجراكسة الجلبان، أخذ متاعًا من دَلاَّل ولم يُرْضه فى قيمته فتبعه الدَّلال

(١) سلطته محصورة داخل القاهرة، وكانت مهامه التأكد من أن حراسة المدينة مؤمنة، وكان يقوم بمعاقبة المخالفين بالغرامات أو بعقوبات شديدة.

(٢) الأشكنجة: كلمة تركية تعنى التعذيب، ويبدو أنها أداة معينة للتعذيب.

(٣) المنح الرحمانية ص٧٩.

(٤) المنح الرحمانية ص٨١.

يطلبه حقَّه منه وهو يمتنع، فقال له الدلال: بينى وبينك شرع الله تعالى، فضربه بالدَّبُّوس فشجّ رأسه وقال هذا شرع الله وسقط الدلال مغشيًا عليه، ومضى الجندىُّ بالمتاع وما قدر أحدٌ من المسلمين على منعه ممّا فعل، قال الرجل فصَعُبَ علىَّ مشاهدة هذا الحال فرفعتُ يدى إلى الله تعالى ودعوت على الجندى المزبور وعلى سلطانه وعلى الظلمة من أعوانه فصادف ساعة الإجابة، وبِتُّ تلك الليلة على طهارة وأنا مفكر فى أمرهم وأحدّث نفسى بذلك، وأقول: كيف يزول مُلك هذا السلطان العظيم وقد ملأت جنوده الأرض؟ وأنَّى للمسلمين بسلطان آخر يرفق بالرعايا، وتطمئن فى دولته البرايا؟ فأخذنى النوم فرأيت فيما يرى النائم ملائكة نزلت من السماء وبأيديهم مكانس وهم يكنسون الجراكسة من أرض مصر ويلقونهم فى بحر النيل، فاستيقظت من النوم وإذا بقارئ يَتْلو القرآن فأنصتُّ له فإذا هو يقرأ قوله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦] فعلمت أن الله تعالى يأخذهم أخذًا وبيلاً[١].

فما مضى قليل إلا وبرز الغورىُّ بجنوده وأمواله وخزائنه من مصر لقتال المرحوم المغفور له السلطان سليم خان إلى حلب فجاء الخبر بعد قليل بأنه انكسر وقُتل أكثر جنوده وفُقد تحت سنابك الخيل فى مرج دابق وهرب بقية الجيوش من الجراكسة إلى مصر[٢].

وصيّروا الدوادار طُومان باى سلطانًا والسلطان سليم فى أثَرهم يفتتح البلاد ويضبطها إلى أن وصل إلى الريدانيّة خارج مصر.

فخرج طومان باى ومن معه إلى قتاله فما حمل هو ومن معه ساعة إلا وانكسروا، ودخل السلطان سليم خان إلى مصر وضرب وطاقه فى الجزيرة الخضراء على ساحل النيل، وهرب طومان باى إلى البرّ ومسكه شيخ عرب وجاء به إلى وطاق السلطان سليم فأمر بصلبه فى باب زُوَيْلة ليَرَاه الناس

(١) المنح الرحمانية ص٨١.

(٢) المنح الرحمانية ص٨٢.

ويصدّقون بقتله، فإن الناس صاروا لا يصدّقون بأنه مُسِكَ وصاروا يزعمون بأنه اختفى لتَحْصُلَ له فرصة فيخرج، وكثر كلام الناسَ وصار مظنّة الفساد وكثرة القيل والقال[١].

فأمر السلطان سليم بصلبه تسكينًا للفتنة، وكان صلبُه فى باب زويلة فى حادى عشر ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، وبصلبه انقطعت دولة الجراكسة كما انقطعت دولة من قبلهم من أرباب الدول من الأتراك والأكراد والعُبَيْديين من الدول، وهكذا شأن الدنيا فى أبنائها تتقلّب بهم وتتحوّل عنهم أىَّ تقلب وأىَّ تحول كما قيل:

ما اختلف الليل والنهار وما ... دارت نجوم السماء فى فَلَكِ
إلاّ لِنَقْلِ السلطان من ملك ... قد زال سلطانه إلى ملك
وملك ذى العرش دائم أبدًا ... ليس بفانٍ ولا بمشترك

وملوك الجراكسة اثنان وعشرون ملكًا، أولهم السلطان الملك الظاهر برقوق، وآخرهم طومان باى، ومدّة ملكهم مائة وثمانية وأربعون عامًا، وليس لطومان باى أثر لقصر أيام سلطنته.

وللأشرف قانصوه مآثر جميلة وعمائرُ حسنة جليلة رحمه الله وسامحه، فممّا عمّره السلطان قانصوه الغورى بمكة المشرفة باب إبراهيم بعقد كبير، جعل عُلُوَّه قصرًا وفى جانبيه مَسْكَنين لطيفين وبيوتًا معدّة للكرا حول باب إبراهيم، وقف الجميع على جهات الخير، ولا يصح وقف ذلك القصر لأنه فى هواء المسجد، وكذلك المسكنان لأن أكثرهما واقع فى أرض المسجد الحرام.

وما أمكن العلماء أن ينكروا ذلك فى أيام سلطنته ودولته لعَدَم إصغائه إلى كلام أهل الشرع والدين، وعدم إقدام العلماء على الملوك والسلاطين، للطمع فى الدنيا الدنيّة، وللخوف على مناصبهم الاعتباريّة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

---

(١) المنح الرحمانية ص٨٦.

وبنى أيضًا ميضأة خارج باب إبراهيم عن يمين الخارج من المسجد هى بطالة الآن لأن روائح عفونتها قد تَصِل إلى المسجد فيتأذّى بها المصلون، فأبطل وغلق قريبًا فى سنة ثمان وتسعمائة بالأمر الشريف السلطانى.

ومن آثار الأشرف الغورى أيضًا الترخيم الواقع فى حجر البيت الشريف عُمل بأمره فى أيامه واسمه مكتوب فيه وفرغ من عمله سنة سبع عشرة وتسعمائة[1].

ومن آثاره بناء سور جُدَّة، فإنها كانت غير مسوّرة[2].

وكانت العُربان فى أيام الفتنة تهجم على جُدَّة وتنهبها، وأسرَتْ عربانُ زُبَيْد فى أيام الفتن الخواجا محمَّدًا القارى وكان من أعيان التجار، من أهل الاعتبار، فهجموا على بيته وأنزلوه من السطح وأركبوه معهم على ظهر فرس ارتدفه واحد من زبيد وأخذوه إلى أماكنهم وهى قرب عقبة السويق من درب المدينة الشريفة، ومكث عندهم أيامًا إلى أن اشترى نفسه منهم بثلاثين ألف ذهب، فردّوه إلى مكة بعد أن استوفوا هذا القدر منه.

ونُهِبَتْ جُدَّةُ مرارًا فى الفتن التى وقعت بأرض الحجاز بعد وفاة المرحوم المقدس الشريف محمد بن بركات بين أولاده وجرت أحوال يطول تفسيرها، فأرسل السلطان الغورى أحد أمرائه المقدّمين وهو الأمير حسين الكُرْدى وجهز معه عسكرًا من الترك المغاربة واللَّوَنْد فى نحو خمسين غرابًا لدفع ضرر الفُرْتقال فى بحر الهند، وكان مبادئ ظهورهم وأمره بدفع الفتن الواقعة إذ ذاك فى جُدَّة وجعلها له إقطاعًا، فلمّا وصل الأمير حسين الكردى إلى جدّة بنى عليها سورًا فى سنة سبع عشرة وتسعمائة، وهو الباقى إلى الآن.

وكان ظلومًا غشومًا يسفك الدماء، ولا يرحم من فى الأرض ليرحمه من فى السماء، فإذا ضمّ أوطاقه بمكان فى سفر أو حضر، رتب حوله أعوانه وجنوده ترتيبًا خاصًا لإرهاب من حضر، ونصب أعوادًا للصَّلْب والشَّنْق

(١) منائح الكرم ٣/ ١٧١.
(٢) منائح الكرم ٣/ ١٧٢.

والشنكلة، وأقام جَلاَّدين للقتل والتوسيط والضرب والبَهْدلة، فأىُّ مسكين وقع فى يده قتله بأدْنَى سبب، أو عذبه بالمقارع أو صلب، إظهاراً للناموس الفرعونى المهيب، وإخافة للخلق بالسياسة والترهيب، كما يُحْكى أن الحجّاج دخل بلدة فصادف إنسانًا عند دخوله فمسكه وأمر بضربه فقال له: أىُّ ذنب لى تضربنى بسببه، فقال له: لا ذنب لك، ولكنّى أريد إرهاب أهل البلاد فحملنى بنفسك ساعة فضربه خمسمائة سوط ثم أطلقه.

وكان للأمير حسين المذكور أسمطة ممدودة فى سائر الأيام، وكان أكولاً بَذولاً للطعام، سمحًا فى المواكلة والإطعام، يستوفى الخروف وحده مع أرغفة عدة، ونفائس له معدة.

وكان كرديًا دخيلاً فى طائفة الجراكسة لا يملأ أعينهم ولا يعتبرونه فيما بينهم، فأراد السلطان الغورى إبعاده عنهم حماية له منهم وكان معتنيًا به فأعطاه بندر جُدَّة على وجه التيمار له، وجهّز معه عمارة ليقتل الإفرنج الذين ظهروا فى بنادر أرض الهند واستطرقوا إليها من بحر الظلمات من وراء جبال القمر التى هى منبع ماء النيل، وعاثوا فى أرض الهند ووصل أذاهم وإفسادهم إلى جزيرة العرب وبنادر اليمن.

وقصد السلطان الغورى دفع أذاهم عن المسلمين بإرسال الأمير حسين الكردى إلى جُدَّة فلمّا أتى إلى جدة سوّرها، وبنى أبراجها وأحكمها، وهدم كثيراً من بيوت الناس، ممّا يقارب موضع السور لوَضْع الأساس، وأخذ حجراتها وبنى بها السور فى شدّة بأس، واستخدم عامّة الناس، فى حمل الحجر والطين، حتى التجار المعتبرين، وسائر المتسببين.

وضيّق على البنائين بحيث يحكى أن أحدهم تأخّر قليلاً عن المجىء فلمّا جاء أمر أن يُبْنَى عليه فبُنى عليه واستمرّ قبره جوف البناء، إلى يوم الجزاء، إلى غير ذلك من الظلم الشديد، والجور العنيد، وبنى السور جميعه فى دون عام من شدّته وغشمه، وإقدامه وظُلمه، واستمرّ حاكمًا بجُدَّة إلى أن تقوّى بالمال وتَأَثَّل وجمع خزائن من كل صنف، فتوجّه إلى الهند فى حدود سنة

إحدى وعشرين وتسعمائة، ودخل واجتمع بسلطان كجرات يومئذ وهو المرحوم المغفور له السلطان خليل شاه مظفّر بن السلطان محمود شاه الكجراتي فأكرمه وعظّمه وأنعم عليه بنعمة طائلة جزيلة فلمّا سمع الإفرنج به ارتفعوا عن بنادر كجرات إلى بنادر الدَّكَن وتحصّنوا بقلعة متقنة محكمة لهم هناك هي تخت ملكهم إلى الآن، يقال لها كُوَّه ـ بالكاف المعجمة المضمومة والواو المشددة المفتوحة بعدها هاء ساكنة ـ يسّر الله تعالى فتحها لسلطان الإسلام، وقطع بسيفه دابر الإفرنج اللئام، وكافّة عباد الصليب والأصنام، ولقد أحسن من قال:

أعُبَّاد المسيح يخـاف صحبى ونحن عبيدُ مَنْ خَلَقَ المسيحَا

ولم يستقرّ الأمير حسين في كجرات بل عاد إلى اليمن وافتتح في طريقه على عوده مملكة اليمن من بني طاهر ملوك اليمن ظُلْمًا وعدوانًا في سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة بعد أمور يطول شرحها، وترك بها نائبًا له في زبيد اسمه برسباي جركسي من مماليكه، وقتل السلطان عامر بن عبد الوَهَّاب مع أخيه عبد الملك بن عبد الوهاب وكانوا ملوكًا من أهل السُّنَّة والجماعة طاهرين في الاعتقاد، ظاهرين على أهل البدع والإلحاد، رحمهم الله تعالى وانقرضت به دولة بني طاهر من اليمن.

وعاد الأمير حسين لمنيّته وحتفه، كالباحث عنها بظلفه، وقدم إلى مكة وكانت دولة الجراكسة قد انقرضت بمصر وملكها السلطان الأعظم السلطان سليم خان بن بايزيد خان بن محمّد خان، رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح الجنان، وسقى عهده صوب الرضا والغُفران، فتوجّه سيّدنا ومولانا المقام الشريف العالي سيّد السادات الأشراف، وتاج رءوس الشرفاء من بني عبد مناف، مولانا السيد الشريف جمال الدنيا والدين محمد أبو نمى بن بركات خلّد الله تعالى سعادته، وأبّد عزّه وسيادته، أرسله والدُه الشريف بركات ليدوس البساط السلطاني بمصر وعمره يومئذ اثنا عشر عامًا فحصل له بذلك غاية التعظيم والإكرام، وبلغ بذلك جميع ما طلبه ورام، وعاد إلى والده

الشريف معززًا مكرمًا ومعه أحكام شريفة بكل ما طلبه وأراده، وأرسل حكمًا مع السيّد عرار بن عجل إلى السيد الشريف بركات رحمه الله بقتل الأمير حين الكردى المذكور، وهو الذى استخرج هذا الحكم لعداوة سابقة بينه وبين الأمير حسين المذكور، فأُخذ مقيدًا إلى جُدَّة وربُط فى رجله حجر كبير وغُرّق فى بحر جدّة فى موضع يقال له أمّ السمك، فأكلته الأسماك، بعد أن كان يُعَدُّ من الأملاك، وكان طعامًا للحيتان، بعد إطعامه الضيفان، وغرق مقيدًا بالأصفاد، بعد أن قتل ما شاء الله من العباد، وتفرّق فى البلاد جنوده وأعوانه بددًا، ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف: ٤٩][1].

* * *

(١) منائح الكرم ٣/ ٢٣٢.